المكتبة الصغيرة

(٥٥)



رمضانيات فيلسوف

محمد حسن نقي

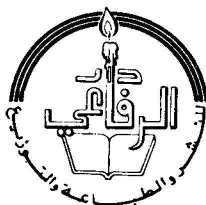


دار الرفاعي

للنشر والطباعة والتوزيع

الرياض

الطّبعَة الأولىَ
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

ص.ب : ١٥٩٠ ـ الرياض ١١٤٤١ ـ تليفون : ٤٧٨٨٨٣٣
تلكس : ٤٠١٣٦٧ (الفرات) ـ فاكسميلي : ٤٧٩٤٣٢١
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الفيلسوف

هو رجل يعيش في دنياه منزويًا مضموراً لايبالي بالأضواء والضجيج ولايعبأ بالمجد والشهرة ..دنياه كتبه التي يعكف عليها كما يعكف العابد في محرابه ! وهو ما يخرج من هذه الدنيا إلى دنيا الناس إلا راغمًا وبمقدار ما يتطلبه السعي للرزق وإلتماسه فحسب . وقد يستغرق أحيانًا في هذه الدنيا التي تطالعه من أقطارها أفكار الفلاسفة والعلماء والفنانين والشعراء فيحلم ويهوم ثم يحملق في الفضاء إلى غير منظور كما يُحملق الوسيط في وجه منومه قبل أن تستغرقه الغيبوبة .. وأحيانًا كان أهله يخرجونه من غيبوبته هذه قسراً ليأكل أو لينام كما يأكل الناس وينامون .. فيمشي معهم متثاقلاً كارهًا كأنما هو يجاملهم بما يفعل .. وكأنما لاحق لهم أن يقسروه على هذه الضرورات التي لابد منها للناس ليعيشوا .. وكان يؤثرني بصداقة على قلة ما يؤثر في هذه الحياة .. وكنت أعتز بهذه

الصداقة معترفًا فيما بيني وبين نفسي وفيما بيني وبين الناس بأنها من أغلى الصداقات وأندرها لأنها صداقة تقوم على الحب الصريح والفهم المتبادل ، ماتعرف الغش ولا المواربة لأنها جبلت على الطهر والبراءة فهو كالماء الصافي ما تنكر عليه أن يريك نفسك كما هي دون تزوير ، ولا تنكر عليه صفاءه وقدرته على الري والإنعاش . ولقد كنت ألومه حينًا على هذه العزلة والتقوقع وهو الذي لو برز إلى الحياة لاختفت أمامه أمجاد كثيرة زائفة كما تختفي النجوم أمام ضوء الشمس الساطع .. فكان يبتسم في هدوء مثير ويقول لي إنك لا تصدر فيما تقول عن إيمان وعقيدة ، فإنك لتعرف من زيف هذه الأمجاد ما أعرف ، وإنك لتعرف أربابها ممن يمثلون ويتحركون على المسرح والشاشة كما يشاء لهم المخرج لا كما يشاؤون هم .أفتريدني أن أكون ممثلاً وأنا غير قادر على التمثيل ولا مفطور عليه ؟ ! وأنت ما الذي جعلك تقتحم وأنت كاره .إنك لتضطرب في دنيا الناس وتجابه الحياة والأحياء سحابة نهارك ثم تؤوب إلى بيتك وقد عسعس

الليل وأنت خانق كظيم . فما تجد برد الراحة إلا بين صبية وأهل تعرف في وجوههم معنى الحب والحنان وقد افتقدته في وجوه كثيرة باسمة ، وفي أذرع كثيرة حاضنة ، وفي ألسنة كثيرة رطبة فلم تجده إلا أشباحًا لا روح فيها ولاصدق .. أشباحًا تذكرك بالموت أكثر مما تذكرك بالحياة .. أشباحًا تفرّ منها وقد ملئت رعبًا إلى عشك الأمين لتناغي الصبية ولتعايش الأهل . ولتلتمس بعد ذلك نصيبًا من هناء الروح والفكر في هذه الكتب التي يقول عنها أبو الطيب إنها خير جليس !! « إنك لتفعل هذا وأنت كاره له ساخط عليه ، وتفعله لأنك تخيرت لنفسك هذا النمط من العيش » فلن تستطيع عنه حِولاً بحكم العادة المتسلطة فلم تريد أن تجرني إلى هذا العناء ؟! واتسعت ابتسامته فما كان يملك أن يزيد على الابتسام حتى لكأن الدنيا قد حرمته من نعمة الضحك فأعطته منها بتقتير شديد .. كان الابتسام أقصى مداه !! وقال لي إنني لأتصورك ـ ياصديقي ـ كالمنحدر من علٍ يود أن يتئد في مشيه ولكن طبيعة الانحدار

تغالبه وتأبى عليه الاتئاد وتدفعه إلى أن يهرول بعجلة فما يشعر بنفسه إلا وهو في القاع .. ولقد مررت بهذه التجربة القاسية مرة فـأكـيت على نفـسـي ألا أعـاود الكـرة فـمـا في القـاع مايستـهـويني .. فلقـد سمعت به لفظًا شديداً أصم أذني وأثار أعصابي وأنا رجل ضعيف السمع واهن الأعصاب فما علي من تثريب إن وقيتهما السوء بهذه العزلة الهادئة المانعة . قلت له : ولكن القاع هو القاعدة ، والقاعدة هي المنطلق إلى القمة ، وإذا كنا ألا نحمل النفس على مكروهها لتشهد ما في القاع وتندمج فيه دراسة واستقصاء ، وتقويمًا وتوجيهًا .. وعلاجًا وإبراء فما في القمة ما يشوق ..إننا لن نتذوق ما في الحياة من طعم حلو إلا بعد أن نتذوق ما فيها من طعم مرٍّ .. المصلحون في حيواتنا هذه يضطربون في غمار المكاره والأقذار .. ويعاشرون السفلة والأوباش لا من أجل أنهم يحسـون في هذا الاضطراب وهذه المعاشرة متعة .. أو يجنون نفعا .. فهم على النقيض من الأمر .. يألمون ويحسرون .. ولكنهم إنما يريدون الارتفاع بهذه الأنماط

البشرية السفلى إلى مستوى أعلى .. ويريدون تصفية أجوائها من الأقذار والمكاره فيصيبهم من هذه الإرادة الإنسانية السامية كثير مما يكرهون وقليل مما يحبون .. وفي هذا القليل لذتهم وعزاؤهم عما يصيبهم من رشاش مؤذ بغيض .. ويسمع مني صديقي الفيلسوف ويبتسم .. فلقد كان يعرف أنني إنما أريد استثارته إخراجه من دنيا الصمت والسكون وإنني أعرف أنه جاهد حتى كاد أن يستشهد .. وأنه خرج من رجفة المعركة بجراح تسيل .. ويقول بعد لأي وتفكير .. ياصديقي اللجوج لقد وعظتني الحياة بمالم تعظ به إلا القليل من الرجال .. فلن يغويني بعد اليوم خداع ولا تضليل .. ولن يستهويني بريق ولا لألاء .. لن أراهن على جواد خاسر فما عاد في جيبي ما يغريني بالمقامرة ! ولقد أخذت بنصيبي من المعركة فما يلومني في الوقوف وراء الصفوف إلاّ غبي أو جاحد .. ولرب وراء خير من أمام .. إنّ الناس في غمرة الصراع لا يبالون بمن يسقط ولكنهم يهتفون لمن يفوز حتى ولو كان أولئك الساقطون إنما سقطوا في

المعركة وهم يناضلون عنهم ويقاتلون في سبيل مثال وعقيدة .. وحتى لو كان أولئك الفائزون قد فازوا بجبن ونزالة .. وفازوا ليسيطروا ويستغلوا لا ليصلحوا ويفيدوا .. إنني أقف في الخلف وأنا أشاهد المعركة .. وأشاهد جرحاها وصرعاها وما أملك من الأمر من شيىء إلا أن أضمد جراحًا أو أواري سوءات وليس هذا بقليل عند المنصفين .. ولأن أكون هكذا أنفع بما أستطيع خيراً من أن أكون أحد وحوش الغاب يحكمني بقانونه فما أملك إلا أن أفترس أو أكون فريسة .. إنني لست وحيداً في هذه العزلة التي آثرتها لنفسي .. فهناك سواي ممن آثروا ما آثرت .. يرتضون عزلتهم فما يختلطون حتى بأضرابهم المعتزلين .. ولئن ساورك ظن في أن هذه العزلة سلبية ما تعمل ولا تفيد فإنك لعلى خطأ مبين .. فإنها لعزلة مثمرة تمتد أشعتها إلى المجتمع من بعيد .. هي عزلة تحب المجتمع ولكنها لا تختلط به .. وتشفق عليه ولكنها تكتفي بعلاجه .. وهي لن تقلق المجتمع لأنها لا تحاول مزاحمته فيما يحرص عليه من عروض ومطامح .. إنك لن تثير

الناس إلا متى نافستهم فإذا عرفوا منك الزهد في هذه المنافسة فإنهم سيمنحونك حبهم وإن كان هذا الحب لن يجدي ولن يفيد .. قلت : أفترى يا أبا سعيد أنك على عزلتك وانطوائك قد تجدي هذا المجتمع بمالا يجدي عليه الكثير من أولئك المنغمسين في تياره ..البارزين في صفوفه ؟! قال : أجل .. إنني لأرى هذا وأرى أنه الحق .. إنه تجربتي الوحيدة الناضجة في حياتي فما أريم عنها بحال .. قلت فإن لي موعداً معك .. ما أرى أنك ستخلفه .. وإنه لتدب في نفسي شكوك وحقائق وأوهام ووقائع .. فما أطيق التمييز بين الشك والحقيقة والوهم والواقع .. ولعلني واجد عندك ما يشفي الغليل ويروي التائه ى المهيع فهل أنت فاعل ؟! فهزّ رأسه هزة فهمت منها أنه يحاول إرضائي ما وجد السبيل إلى الإرضاء .. وافترقنا على عد ..

***

المجلس الأول :

وجئت الشيخ في الموعد المضروب فأبصرت به ينظر .. يا له من أعجوبة ، لكأنه في الدقة والإتقان ظاهرة من ظواهر الطبيعة ما تخطىء موعدها قيد شعرة ولو أخطأ الناس الحسبان .. ولقيته يهمهم همهمة إعجاب فقد فرغ لتوه من قراءة قصة للكاتب الروسي الكبير «تولستوي » أثار فيها مشكلة معقدة ثم حللها بقلمه البليغ ونزعته الإنسانية .. والإعجاب يضئ وجه الشيخ فتكاد تنظر شيئاً مجسداً لا معنى له أثيريا .. ولقد كان تولوستوي من الأغنياء وأصحاب الأراضي الواسعة فتنازل عن ثروته وأراضيه للفقراء والفلاحين وعاش فقيراً راضيًا بفقره سعيداً به . وأحبه الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم لأنه طبق نظرياته وآراءه التي كان يدعوا إليها تطبيقًا عمليًا على نفسه فعرفوا فيه صدق المبدأ وعمق العقيدة وحرارة الإيمان .

وقال لي الشيخ ماذا ترى في هذا الإنسان الرائع ؟! إن كثيراً من الناس يرمونه بالحماقة ويرون فيما فعل جنونا . فإن

المادة في نفوسهم أغلا من القيم وأعلق بالطباع .. قلت له وأنا أحاوره وأجرّه إلى النقاش .. ولقد يكونون على حق في نصف النظرة على الأقل .. فإن من الحق ألا تحرم نفسك وذويك لتمنح الناس . فإن كنت ميالاً للبر فإن برّ النفس والرحم لهو في القمة من ألوان البرّ وتحت هذه القمة تربض بقية الألوان . فليس من البر أن أوثر الناس على نفسي وأهلي وإنما أعطيهم ما يفيض .. ثم لماذا نكدح في الحياة إن كنا نتنازل عن ثمار الكدح لسوانا ولا نتذوقها ؟! أليس من حقنا أن نطعم ونختار مما جاهدنا وأنفقنا العمر في سبيل الحصول عليه ؟! أو ليس من واجب أولئك الذين نسميهم المساكين أن يكدحوا ليحصلوا ولو على نصيب يكفيهم مؤونة العيش ويدرأ عنهم غوائل الفاقة ؟! وإذا كان من القسوة أن نمسك أيدينا عن المحتاجين فما نخفف عنهم وطأة الحاجة ، فإن من العته أن نضع أنفسنا مكانهم بعد أن وصلنا إلى مستوى كريم من العيش لنرفعهم إلى مكاننا وننحدر نحن إلى مكانهم وقد سعينا وقعدوا وكددنا وكسلوا ؟! فشزرني

الشيخ بنظرة تكاد تكون لهبًا يصعق .. وقال لي : يا صديقي إنك لتتلاعب بالألفاظ ويستهويك الجدل .. إن تولستوي قد خلد بما فعل ، وفني أولئك الذين كانوا ينظرون إلى البرّ الإنساني الشامل العميق نظرتك هذه القصيرة العمشاء .. إن تولستوي لم يمت جوعًا حينما أقدم على عمل إنساني من طراز ممتاز .. فلقد كدح وعاش وكتب لنا أروع روايات ، وخطط لنا بفلسفته خطوطًا لا حبة لو سلكها البشر لما استمر بينهم الصراع في سبيل لقمة العيش .. ولو أنه اختار من سبل البرّ أيسرها فأعطى نفسه وذويه أكثر مما أعطى الناس لما استطاع أن يصل إلى هذه المنزلة الرفيعة التي يحتلها بين كبار الكتاب والفلاسفة .. وإذن لألهته الثروة والجاه عن السمو والتحليق .. إن قيمة تولستوي العظمى هي في هذا الإيثار وهذا التخفف من أثقال المادة والتحرر من أوهاقها فهو إنسان قبل أن يكون كاتبًا أو فيلسوفًا .. وفي الدنيا أغنياء كبار .. أترى منهم من نال نصيبًا من الخلود إلا بمقدار نصيبه من الخير والرحمة ؟! إن غالبيتهم

يظهرون على السطوح كالفقاقيع ثم يتلاشون فما تحتفظ لهم الإنسانية بمجرد الذكرى إلا أن تكون من أسوأ الذكريات وأدعاها إلى المقت .. ولرب كلمة كانت ذات روح خالد ما يفنى ، ولرب عرض باد واندثر وما أبقى سوى الإثم والتهجين فأيهما يختار اللبيب ؟! وبعد .. فلست أود أن أجادل فيما أعتقد إلا بمقدار ما أستيقن أنني أجادل من يحرص على الحقيقة لا من يحاول إظهار براعته في الجدل والحوار .. ولقد عرفتك من رواد الحقيقة ومفتونيها . فما لي أرى اليوم بك نزعة إلى أن تحمي بجدلك ما لا تعتقد ؟! أتراك آنست مني ضعفاً أهدتنيه سن طاعنة ، فحملك هذا الضعف على أن تقاويني بالحجة الغالبة ؟! ومس يدي بحنان عرفته وقال إن الشيخوخة وعاء الحكمة وإن ضعفها لقوة .. إن كل يوم يمر بك يضيف تجربة إلى تجاربك الشتيتة ، وكلما ازددت وعياً كلما أفدت من التجارب علمًا جديداً يقشع عن عينيك الغشاوات ، ويفضي بك إلى رحابة وعمق وشمول .

فاحذر يا صديقي أن تحاول افتراس مفترس فلقد تبوء

يومئذ بالخُسْران وأنت تنشد الربح ، وما أخالك إلا فطنًا لا يطعن الهواء فيكل ساعده ويظل الهواء هو هو مادة الحياة التي لاينال منها الطاعن ولكنه يتخاذل وينال منه الإعياء فيما يرد إليه قواه إلا استنشاق الهواء .. ولله في خلقه شؤون .

***

المجلس الثاني :

ووافيت الشيخ ثانية فإذا هو كعهدي به بين أكداس من الكتب يقرأ تارة ويفكر أخرى ويكتب ثالثة هوامش دقيقة على أطراف الكتب وبين ثنايا السطور . فألقيت عليه السلام ولكنه كان ساهمًا يهوم فلم يرني ولم يسمع تحيتي .. ولم تكن هذه الاستغراقة بالجديدة عليّ فقد كان الشيخ ينام في يقظته أحيانًا فما تعرف أفي يقظة هو أم في منام ؟! ولقد داعبته مرة فشبهته بالذئب الذي وصفه الشاعر العربي بأنه ينام بإحدى مقلتيه فهو يقظان نائم ؟ فابتسم وقال لي أن حياته تمتزج فيها الصحوة بالأحلام ، وأنه لم يشعر قط أنه مستغرق في صحو أو غيبوبة ! فقلت له مداعبًا لو أن الناس جميعًا مثلك لاختل نظام الكون .. ولما قامت حضارات يتفيأ ظلالها ويخرجون بها من دنيا الغاب إلى دنيا المدنية .. ففكر قليلاً ثم قال : هذا قليل من الحق وكثيرمن الباطل ..فما زلت تنمق الكلام ثم تزجي به إليّ باطلاً يتشح بالحق ..فإذا ما نزعت وشاحه بدا لك زيفه وتفاهته.

الدنيا ـ يا صديقي ـ تحتاج لتسير سيرها المرسوم إلى أنماط شتى من ناس وألوان شتى من الخصائص والطباع .. فكما أنها تحتاج إلى العامل والزارع والكادح بوجه عام فإنها تحتاج إلى ذوي المشاعر والأفكار .. إن هؤلاء هم الذين يرسمون لأولئك مناهجهم ويمهدون سبلهم .. تصور دنيا خلت من العلماء والمفكرين والشعراء .. أي دنيا بغيضة هي ؟! وأي نقص وكلال يعتورانها ؟! إن الحق أن يأخذ كل إنسان مكانه الصحيح .. فلن أغني عنك في محلك ولن تغني عني في محلي .. وليس الاضطراب الذي نشاهد أحيانًا في موازين الحياة إلا نتيجة طبيعية لاقتحام بعض الناس ما ليس من حقه أن يقتحم من ميادين لم يهيأ لاقتحامها .. لإحجام بعض الناس عن غشيان هذه الميادين وهم أهلها الذين خلقوا لها .. فلو أنك وضعت الفيلسوف ـ مثلاً ـ مكان الميكانيكي لكان أخيب الناس وهو من هو عقلاً وحكمة .. والعكس صحيح بجملته وتفصيله .. فمن الخير للحياة والأحياء أن يقوم فيهم من هو مثلي يؤثر العزلة كما

يقوم فيهم من يؤثر الضجيج وتبهره الأنوار الكاشفة .. فلماذا يعتب عليّ ما أنا فيه أخو الحقيقة ؟! ولماذا لا تلوم نفسك وأنت امرؤ بين بين .. تحن إلى العزلة المفكرة فإذا بلوتها أمسيت في قلق يتجاذبك الحنين إلى المجتمع والضوء فما تستريح حتى تخالط الناس وتنغمس في حيواتهم .. فلست بالمعتزل ولا المخالط ؟! قلت له فلعلي نمط خاص من البشر يتميز بالفضيلتين ويؤثر الحسنيين ؟! قال كلا ..إنه ليحزنني أن أصارحك برأيي في هذا النمط الذي يشبه ذلك الغراب المتأرجح بين مشيتي القطا والحجل ..فإنني لأوثر الأصالة الذابلة على الهجانة المتفتحة.. على أنني سأنصفك فأنت عبد طبعك وإن نفسك لتنازعك إلى دنيا الفكر والتأمل والوحدة .. ولكنها تستخذي أمام مطالب الحياة وبهارجها فما تملك إلا الانصياع .. إن اصطفاءك لي من بين الأصدقاء ونزوعك إلى عشرتي على ما فيها من جهامة وجفاف لهو الدليل المقنع على أن في نفسك زاوية لم يصل إليها الزيف ولم تحرفها الغواية .. وأنا ؟ إنني

لأقيم الشعور في أحكامي المقام الأول فليس تستميلني مجاملة ولاتودد ما دام شعوري يملي علي أن أحذر وأحترز .. وما دام هذا الشعور يطل بعين البصيرة على الدخائل والأغوار فيستشفها ويتبطق سرائرها .. ولقد اصطفيتك فأنت حبيب إلى نفسي قريب إلى عقلي .. ولم يخدعني شعوري فيك فإنك لعلى خلقٍ وإن فسرتك الحياة على ماتكره ..فدمدمت بثناء وحمدت على ثقة .. وإن للشيخ في نفسي لمنزلة ماترام .. فليس من يعرف فضله .. ومن يقدر علمه مثلي .. قلت له : وقى الله شيخنا السوء ومدّ لنا في عمره وأنالنا من برّه فلئن تجاوزت في حديثي معه حدود الأدب فما ذاك إلا لإدلال مني عليه .. وحظوة عرفتها فاستثمرتها .. وما أتطاول عليه وأنا أعرف قدر نفسي أمام قدره .. ولئن لم يفسح لي من حلمه فسأتضاءل وأنكمش وأرعوي وأقلع .. فهل إلى عفو من سبيل ؟ قال الشيخ فإنك لتعلم أني واسع الصدر على من هم دونك مودة وأدبًا وإنك لتعلم أنني ما أضيق بالجدل يستهدف وجه الحق ويسعى إلى المعرفة ..

وإنك لتعلم قبل ذلك وبعده أنني أراك بمنزلة الشقيق والولد ، وأنني لا أطيق لك جفوة ولا أستطيع عنك فراقاً .. فزد بهذا علمًا إلى علمك وتحدث في غير ما خرج ولا إشفاق .. فأفرحَ روعي وتطلقت بعد عبوس .. وقلت للشيخ لقد أرحتني أراحك الله .. وسألقي عليك بأسئلتي التي تلوب في صدري فما أجد لها جوابًا . وسأظفر منك بالحكمة الصريحة والصراحة الحكيمة وسأبدأ هذه الأسئلة بسؤال عن قواعد الحكم الصالح وأركانه ومسؤلياته .. فإن العالم حولنا ليضطرب في متاهات ويخبط في دجنات .. وكل جانب من جوانبه يدعى لنفسه الرشاد وينسب لغيره الفساد !! ولقد اختلط عليّ الرشاد بالفساد فما أدري - في غمار هذا الطوفان من الدعاوى - ما آخذ وما آدع فأنرْ لي السبيل أنار الله من بصيرتك وسدد من خطاك .. فلعل مصباحك هذا يهدي إلى الحق بعد الضلال .

***

المجلس الثالث:

قال الشيخ بعد صمت ظننت أنه لن ينتهي .. فإنك لتبدأ بقصوى درجات السلم قبل دنياه .. وإنك لتريد مقطع الحق وفصل الخطاب في قواعد الحكم الصالح وأركانه ومسؤلياته وهذا الحكم قمة فلماذا لا تبدأ بالقاعدة ؟

إن الحكم الصالح هو آخر مراحل نضج الشعوب ، وهولن يتأتى إلا بعد حرب يعقبها سلم وسلم يعقبها حرب تسقط فيها ضحايا ويطيح شهداء..فكل أمة تبدأ بالغاب وتنتهي إلى الحضارة .. تمارس أنماطًا من الحكم في تدرجها الحضاري يعبث بها حينًا فتستسلم لأهوائه وتخضع لأحكامه .. وتعبث به أحيانًا حتى ينزل على مشيئتها ويسير إلى أهدافها .

ولقد يجوز الحكم وهو من الحضارة في الأوج ولقد يعدل وهو من البدائية في الصميم . فليس مرد العدل إلى مدنية أو تخلف ، وإنما مرده ـ في الأرجح ـ إلى عقلية الحاكم ونفسية المحكوم . فلقد يعرف الحاكم المتخلف بالبديهة الواعية أن بقاءه

في الحكم واستمرار هيبته ونفوذه يتوقفان على ما يسديه إلى المحكومين من عدالة ورخاء تجعلهم سواسية أمام الحق ، وتطمئنهم على معاشهم فيجد كل منهم ـ في حدود نشاطه وطاقاته ـ لقمة العيش خشنة أو مترفة ، فالأمر سيان ما داموا في مأمن من غائلة المجاعة والحرمان . ولقد يعصف بالحاكم المتمدين فيجور وهو الفطن الحصيف استخفافًا منه بالمحكومين ، وثقة بقدرته على التطويع والتنكيل أوفهمًا منحرفًا منه بأن هذه هي الحزامة القادرة التي لن ينصاع الناس إلا إليها ولن تتحقق له أهداف إلا بها .. ولقد تنجح هذه الطريقة إلى أمد ولكن لن يقدر لها أن تعمر طويلاً .. فمن طبائع الناس المتأصلة فيهم أنهم لن يجنحو إلى الرضوخ لمثل هذه الأساليب الظالمةإلا بمقدار ما يتأهبون لمناهضتها والتغلب عليها .. فأما نفسية المحكومين فإنها التي أملت للحاكم العادل ـ بالإضافة إلى بديهته الواعية ـ أن يسير على نهج كريم في الحكم لأنها تأبى السيرعلى نهج سواه .. ولأنها توارثت العزة فضنت بها على الضياع ، وكدت

من أجل الرخاء فإن تطيق استبداله بالشظف وقد بذلت من أجل الجهد والعرق ..وهي هي بعينها النفسية التي مهدت للحاكم الجائر سبيله إلى التسلط والافتئات حينما استنامت إلى الدعة وآثرت السلام فمكنت له أن يتحكم وينحرف ويتصرف في مقدراتها تصرف المالك المطلق يرى في تصرفه الشرعية التي ليس من حق أحد أن يتصدى لها أو يخالفها ..

هي ـ إذن ـ قداسة أعطاها لنفسه ولم يعطها له أحد ، معارضتها عنده من الحماقة التي لا بد لها من روع .. فأنت ترى معي ـ ياصديقي ـ أن التخلف لم يعق العدالة حينما صادفت عقلية حاكم رشيد ونفسية أمة واعية .. وأن الحضارة ـ وحدها ـ لا تحقق العدالة إذا انحرف الحاكم واستنام المحكوم .

وما أريد أن أشق عليك بسرد الأمثال ، إن هو إلا مثل واحد من العرب القدامى .. ففي جاهلية العرب قبل الإسلام نجد تمرداً على الظلم ومقاومة له ونرى ملامح منهما في قضية طسم وجديس ، وفي قضية عمرو بن كلثوم مع أحد أقيال العرب

المتجبرين المنذر الأكبر عمرو بن هند .. وفي التاريخ الحديث ترى طغيان حاكم وخضوع محكوم .. والحكم أيًا كان نوعه .. هو خطة اتفق عليها الحاكم والمحكوم اتفاقًا غير مكتوب .. فهو يأتي من القاعدة .. ومن القمة على السواء يشتركان فيه بأنصبة متساوية .. فإن تجد حاكمًا إلا وهو يستوحي نمط حكمه من نفسية أمته ولن تجد أمة إلا وهي التي تكيف عقلية الحاكم وتجدد طريق حكمه .

ونحن هنا ـ ياصديقي ـ نتكلم عن الشيوع لاعن الشذوذ فلقد يقوم الحاكم العادل في عصور الحضارة والتخلف وفي الأمم الواعية الخاملة .. ولقد يقوم الحاكم الظالم في العهدين وفي الأمتين ، وهو شذوذ في طبائع الأشياء ما ينبغي القياس عليه .

ونحن هنا في الشرق نتهم بالروحية . كما نتهم نحن الغرب بالمادية ، وتركيب العالم يقوم على المادة والروح لا غنى لإحداهما عن الأخرى ، على أن في الشرق أحيانًا مادية تفوق مادية الغرب كما في الغرب أحيانًا روحية تفوق روحية الشرق .

والناس إنما يحكمون على السمة الغالبة ولن يستطيع العالم أن يعيش في المدينة الفاضلة التي تخيلها أفلاطون في جمهوريته بل لعله لا يطيقها إن هي أصبحت حقيقة قائمة فإنما نحن بشر نعيش على هذا الصراع الخالد بين الخير والشر والقوة والضعف والروح والمادة .. ولن تجد مجتمع ملائكة ولا مجتمع شياطين وإنما أنت واجد خليطًا من المجتمعين .

وأحسست أن التعب قد دبّ إلى أوصال الشيخ فبادرته برجائي أن يبين لي في كلمة موجزة عن قواعد الحكم الصالح وأركانه فقال لي وهو يتثاءب : إن قواعد الحكم ـ أيًا كان لونه ـ هي رأس الدولة والحكومة والشعب ، عليهم ينهض وبهم يسير فيتجه إما إلى الأمام وإما إلى الخلف .. أما قواعد وأركان الحكم الصالح فهم أولئك إذا تزودوا بالعدالة المتبصرة والوعي الحكيم وأما مسئولياته فهي ضمان العزة والرخاء والعدالة والمساواة وشكرت الشيخ وودعته إلى لقاء ..

***

المجلس الرابع :

وهفا بي الحنين إلى رؤية الشيخ فزرته ، وكان يكتب هوامش صغيرة على كتاب يقرؤه ، وعهدي بهوامش الشيخ أنها تنفح حكمةً و فهمًا وتصويبًا .. ولكنه أغلق دوني الكتاب وهو يبتسم ، واستبد بي الفضول فسألته عما قرأ وما علق . فما كان يبخل بعلمه قط ، وما خرجت من عنده إلا وأنا أشعر اتساع عقلي وازدياد علمي فأنا في كل زيارة له أحتقب معرفة .؟

قال الشيخ : إنه هامش لم يتم بعد .. وأنا ما أزال حائراً بعد في وجه الصواب لهذا الأمر ، وما أزال أفكر فيه لأهتدي إليه وما أحب لك أن تأكل من الفاكهة الفجة فاصطبر قليلاً لتنضج ولن يطول اصطبارك .. فأما أن يكون الكاتب على حق أوأن يدور في خلدي ـ على الأقل ـ أن الحق جانبه فاستكمل عندها هامشي وأنا مطمئن الضمير فإنما أنا خادم للحقيقة ما أعدوها قيد اظفور .

وزاد الشيخ في عيني إكباراً إن كان هناك مكان لمثل هذه

الزيارة ، وقلت له إذن فليأذن لي شيخي في أن أواصل ما انقطع من البحث في حديثنا السابق . قال : أما هذه فنعم .

وإني لأذكر ـ إن لم تخني الذاكرة الكليلة ـ أننا كنا نتحدث عن الفيلسوف جان جاك روسو ، وإنك كنت تؤثر نظريته القائلة بالرجوع إلى حياة الفطرة الأولى .. لشد ما يتشاءم فيلسوف هذا .. إن الحضارة المثلى ـ ياصديقي ـ هي فطرة راقية ومهذبة . فما لم يطغ العقل على الروح ، أوتطغى الروح على العقل ـ في أية حضارة ـ فإنها بلا جدال خير من حياة الفطرة البدائية المفتقرة إلى التلوين .. والتطور ..إن هذه النظرية تعني جمود الفلك فما يسير .. والفلك سائر في طريقه ما يريم . والبشر يضيفون كل يوم إلى حيواتهم جديداً كثيره نافع وقليله ضار . فيكف يتسنى لهم أن يقفوا عند طور واحد ما يعدونه إلى ما هو خير منه وأسمى ؟! وروسو نفسه هل كان قادراً على أن يقدم للبشرية فلسفته الرائعة ونظرياته المتطورة لو لم يتجدد هذا الكوكب عن ذي قبل ؟! إنه لم يكن مستطيعًا ـ لو لا هذا

التطور ـ إلا أن يردد أفكار الفلاسفة القدامى كأرسطو وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس وبوذا ومن إليهم مع قليل من التحسينات والإضافات التي تطبقها العقول القوية النادرة .. وأولئك الفلاسفةالخالدون .. لو أنهم عاشوا في عصرنا هذا لتطوروا ولتطورت عقلياتهم وأحاسيسهم وأخلاقهم وحتى مفاهيمهم ومقاييسهم ..إن العقل القوي في كل العصور يستطيع أن يبدع ولكنه تطور من عصر إلى عصر .. فيهضم ويتمثل ويضيف ويجدد فيزداد إبداعه تفوقًا ولمعا نًا ..

ولقد كان روسو أحد العقول العبقرية بلا شك ، ولكنه كبشر لم يسلم من الأخطاء والمآخذ . واعترافاته ـ وهي من أروع ما خط يراع وتمخض عنه فكر ـ تعج بهذه الأخطاء والمآخذ التي يدونّها هو نفسه معترفًا بها نادمًا عليها خجلاً منها .. إنني أنصح لكل المثقفين أن يقرأوا هذه الاعترافات الصريحة الصادقة ، فإنها لصفات متألقة متشامخة تقف جنبًا إلى جنب مع أعظم ما أبدعته العقل .. في كل العصور وأن روسو يجرد

فسه من هذه الاعترافات من كل اعتبار ويقف بها عارية أمام الناس بسموها وانحطاطها ، بجبروتها وضعفها ، برقتها وقسوتها .. بكل ما تخفل به النفوس البشرية من متناقضات .. ونحن إذا قرأنا كتب روسو بدقة وتعمق فإنه سيتضح لنا أنه يدعوا إلى الحضارة ويؤمن بها ويمكن لها الأرض . إن كتابه «العقد الاجتماعي » هو من الكتب التي بذرت بذور الثورة الفرنسية ، ومؤرخو هذه الثورة يعتبرون روسو أحد روادها الكبار فلا يخدعنك من روسو ما نادى به في فترة من فترات التشاؤم التي مرّت بحياته العاصفة أن العقل الكبير لا يدعو الإنسانية إلى العودة بحضارتها القهقري ، ولكنه يبين لنا عيوب هذه الحضارة ومباذلها لنحاذر ونصلح ونسير بالحضارة إلى الأمام نقية كريمة ما أمكن الحضارة أن تكون كذلك . إنني أربأ بك أن تنخدع بالظواهر المضللة وإن كانت دعوة روسو ليست إحداها . فلقد يكون باطن هذه الظواهر هو الشرعية .. ويحضرني الآن مثال بارز على ظواهر خيرة تراها فماتنكرها لأنها تتزمل بالمثل

العليا والتحرج الديني والدعوة إلى التقشف وقمع الشهوات ؛
فإذا تعمقت في دراستها والتغلغل في دخائلها تكشفت لك عن
تعصب ذميم يقود إلى أسوأ المصائر ويرتكب في سبيل غاياته
من ألوان العنف والقسوة ما يبرأ منه الضمير ويندي له جبين
الإنسانية . وإنني لأستميحك المعذرة على هذا الاستطراد الذي
انحرف بنا قليلاً بسبيله من بحث ..

ففي العصور الوسطى قامت في أوروبا جماعة «الكاملين»
وهي جماعة أخذت عن ماني دعوته التي تقول بأن الشر سيبقى
قائمًا ما دامت هناك حياة ووجود ماديان ، وأنه لا سبيل
لانتصار الخير على الشر إلا بتدمير العالم المادي !! لقد ارتكبت
هذه الجماعة باسم الحرمان وتطهير الروح من أدران المادة ومن
ضروب الشر والعدوان ما يعجز القلم عن تسطيره .. ولقد
انخدعت بدعوتها هذه جماعات كبيرة من الناس ولاسيما في
فرنسا فماذا كان ؟! لقد رفرف الموت والخراب بجناحيهما على
كل بقعة من الأرض كان لهؤلاء الكاملين فيها كلمة وعليها نفوذ

وسلطان .. وانتشر الرعب في كل مكان من جلاديها القساوة .. ولم يرتفع كابوسها عن الصدور إلا بانهيار دعوتها بعد أن عرف الناس أنها رحمة مبطنة بالعذاب . وبعد أن عانوا من هذه الرحمة العجيبة ما عانوا من مصائب وويلات ..

وسمعت صوت الديك يؤذن بدنو الفجر فودعت شيخي .

***

المجلس الخامس :

أصابني إعياء فتخلفت عن موعد الشيخ فسأل ، ولما علم زارني .. فهرعت إليه من فراشي مرحبًا وأنا أهمهم بشكران وأشعر بحبور .. ما أقل من يزور ومايزور ! وكان الشيخ يمشي مشية القطا على إيغاله في السن واحتماله من الأثقال .. وقلت له : أينع الله شيخي الحبيب بالصحة الدائمة ولا أقعده بفراش .. إنه ليطوقني بمنة بعد منة ، فما أعرف كيف أتخفف من أعبائها برد أو حمد .. قال : لا عليك ، فإن في زيارة المريض لأجراً فكيف إذا كان المريض الصديق ؟! لقد تقاضيت الثمن الربيح من زيارتي هذه فاحتقبت أجراً وحظيت بطمأنينة وإيناس .. قلت : فإنني لأرجو من شيخي ـ وأنا أغبطه على شيخوخته الشابة التي لم يدب إليها الوهن ـ إن يدلني على اكسير الصحة فلعلني ألتمس عنده شيخوخته تمرح في عزمة وشباب ؟! إنني في ربيع الحياة ولكن الخريف يداهمني كل آن بنذره المخيف ؟! ولست بأسف على ما انصرم من عمري ، ولكني راغب في أن يكون ما

بقي منه بمنأى عن التدهور والانحطاط المبكرين ! . قال الشيخ : فإن الاكسير الذي تنشده قائم في كيانك ما تحتاج إلى أن تلتمسه من خارجه .. ففي كل جسم بشري بل وحيواني قوة مدخورة تكفيه أن يعيش في كل أطواره عيشة راخية لو أنه حافظ على هذه القوة ولم يبددها .. إنها الرصيد الذي يمدّ به الله كل مخلوق حي يدفع به إلى الحياة لينفق منه برشد وتبصر أو برعونة وعماء ! وإذا كان من الصحيح أن أطوار الحياة تختلف بطبيعتها قوة وضعفًا لأن الشيخوخة ليست كالشباب ، فإن من الصحيح أيضًا أنه من الممكن أن نحتفظ بمقدار من القوة والصحة يكفينا إلى آخر رمق من الحياة إذا نحن أحسنّا التصرف في رصيدنا ..

وأحسست أن الشيخ يتدسس إلى نفسي بنظراته الثاقبة فيكشف خباياها ويهتك مساتيرها ويعرف أنني أعاني من عواقب الإفراط ، وأنني ما لم أتدارك أمري فإنني سأنهار .. قلت له ـ وأنا أغض من بصري حياء ـ : لقد أصاب الشيخ

كعادته كبد الحق ، ولسوف أنحو نحوه فما أسرف على حساب رصيد ضعيف .

قال الشيخ : فإنني لأرجو لك هذا وإن كنت أظن أنك لن تطيقه .. إن العادة المتمكنة كالطبع قوة وضراوة.. ولقد سرت أمداً طويلاً على نهج فلن تستطيع أن تنحرف عنه إلى سواه بسهولة ويسر .. فأنت كالمدمن ما يشفيه من دائه إلا إرادة جبارة وصبر طويل فعلى من يخالف هذه الأحكام أن يحتمل العقاب . وإلا فما هي جدوى الاستقامة ؟! وما هي ميزة الفاضل على المفضول .. وجزاؤه ؟! إن الاستقامة تكبد المستقيم من المشقة ما لا يطيقه إلا الجبابرة .. وقهر النفس وإرغامها على سلوك السبيل السوي ليس بالأمر الهين .

وأولئك الذين لم يجربوا هذا الصراع لا يعرفون قسوته وأهواله ، ولذلك فهم لا بد أن يدفعوا ثمن اعتزال هذا الصراع أنهم أختاروا لأنفسهم السير في طريق معين فعليهم أن يسيروا في هذا الطريق إلى النهاية ، فإذا ما أرادوا النكوص عنه فلا

مناص لهم من أن يعودوا القهقري في نفس الطريق وأن يتحملوا متاعب السير إلى الوراء في وضع مقلوب حتى يصلوا إلى بداية الطريق الذي تتلاقى أطرافه بالطريقة الحديثة .

قلت للشيخ ـ وأنا ألهث من التفكير في هذا العناء المحتوم الذي سأتجشمه ـ ولكن المستقيم يكسب بالصراع النفسي مرتين .. والمنحرف يخسر مرتين ! أفيرى شيخي أن هذا من العدل في شيء ؟! قال : أجل . إنه العدل نفسه فالمستقيم حينما يجالد في سبيل قهر النفس يرهقه الجلاد في البداية ثم يتعوده فيغدو عنده أمراً ميسوراً وهذا هو الكسب الأول ؟ يناله .. يعبر على العناء وتصميم على الفوز .

وأما الكسب الثاني فهو في هذه الصحة المديدة في الجسم ينعم بها في شيخوخة وشباب ، وهذه السكينة المطمئنة في النفس يهنأ بها مدى الحياة فما يشقى بوخز ولا تأنيب .. أما المنحرف فإنه يخسر مرتين .. أولاهما هذا التبديد الطائش في رصيده الإلهي حتى ينفد قبل أوان فما تبقى غير الحسرة والألم

وثنتاهما ود الفعل المرير في العمل المندفع ما يكبحه لجام .. إن المنحرف قد يعجز وهو في ربيع العمر عما يمارسه طاعن في السن . وفي كل مرة يحس بعجزه ويشهد قدرة سواه يشعر بِهَمٍّ لا يطاق .. لأنه هم ينبثق من أغوار شباب كليل لاهف ، وصحة منزوفة مهدودة ! فأنا ـ مثلاً ـ قد لا أشعر بغصة ولا ندم إذا أبصرت شابًا يستمتع بما لا أستمتع به في شيخوختي .. ذلك لأن الشباب قدرة ، والشيخوخة عجز في ميزان الطبيعة ، ولكني ـ على شيخوختي ـ قد أشعر بالغصة والندم حينما أبصر شيخًا في مثل سني يقوى على ما لا أقوى عليه .. إن معنى ذلك أنه قد أطاق في الشباب ما لم أطقه من موازنة قواه وقهر قواه .. أما أنت فإنك وأنت في شرخ الشباب .. في إبان الظهيرة المتلظية .. تشعر بلا ريب بمرارة وجزع ، وحرمان وتتضاعف المرارة والجزع من الحرمان ، حينما تبصر بشيخ مثلي يفوقك توقداً أو نشاطًا . إنه تفويض الطبيعة لهؤلاء الشيوخ الذين لم يسرفوا عليها في الشباب .. أليس كذلك ؟! قلت : بلى ولكني

سأرجع القهقري في الطريق الشائك ، وسأحتمل العقوبة العادلة بصبر ، فلعلني أصل في النهاية إلى الطريق التي سلكت فأنعم بشيخوخة ناضرة هادئة .. قال : افعل فإنك ستحمد العقبى . واستأذن وودع ، فشيعته إلى الباب باحترام . وعدت إلى فراشي أقلد مشية القطا .. وأشعر بالعافية تدب في أوصالي وبالطمأنينة تتسلل إلى نفسي .

***

المجلس السادس :

وزرت الشيخ بعد ابلالي فرحب بي وأخذ يتغرس في وَجْهي برضى واغتباط . فعجبت لما يفعل فقد كان من عادته أن لا يثبت عينه في عيني محدثة إلا ريثما يغفي حياء ..

وسألته : ما بال شيخي يحدق فيّ كأن لم يرني قط إلا العشية ؟! فابتسم وربت على ظهري وقال : لا عليك يابني فإني لأنظر مستمتعًا إلى هذا الصفاء الذي يشع من عينيك فيهدي الناظر إلى الطمأنينة التي تنعم بها نفسك .. ولقد كدت أنكر عيني أو أنكر عليك هذا الصفاء الوافد ، فما كنت ـ وأنت خَدَنِي ـ الحظة عليك من قبل !! قلت له وأنا في غمرة من السرور بصلاح أمري وصدق فراسة الشيخ : فإني ـ متعني الله بانعطافك ـ لشديد البهجة بما تقول . وأرجو أن يديم الله علي نعمة هذا الصفاء الذي أهديته لي .. قال الشيخ : فإنه سيديمها عليك مادمت عاقد العزم على تخليص نفسك من مأساتها والخروج بها من دجاها إلى نورها .. ستلاقي نصبًا في سبيل هذا

الخلاص ، ولكنك ستفوز وستنسيك حلاوة الفوز مرارة التعب ، فسر في طريقك ولا تبال .. قلت للشيخ : فإني لأعدك منذ اليوم منقذ روحي بعد أن قمت بتثقيف عقلي ، ولئن وجدت في الثانية ثقة واعتزازاً فلقد وجدت في الأولى أمنًا وطمأنينة .. فابتسم الشيخ بتواضع وقال : لست بالمنقذ ولا المثقف وإنما هي الأقدار شاءت أن نتلاقى وأن يحتك فكرانا .. فتنبعث منهما هذه الشرارة التي أضاءت طريقينا .

ولقد طالت النفس الأمارة تنازعني حيناً إلى المتعة واللهو فأنظر إليك وأنت تتفجر شبابًا وحيوية ولكنك تنزع بفطتك إلى الخير وتؤثر الحسنى وتثبت للغواية التي تمليها عليك نوازع اللحم والدم فتهزم حينًا وتنتصر أحيانًا .. وأنظر أنا إلى نفسي وقد تعدت طور الشباب ولم يبق بينها وبين لقاء ربها إلا أمداً قريبًا . وهي رغم كهولتها واقترابها من القبر تنزع أحيانًا إلى الغواية وتكاد أن تفارقها لولا الخشية والضعف ! لقد كنت أنظر إلى حالينا فأعجب بك وآخذ منك العبرة فأنهي النفس عن الهوى

حتى تثوب إلى رشدها بعد تمرد وعصيان فأنا آخذ منك أكثر مما أعطيك فلا من ولا تثريب ، فإنما كلانا بشر خاضع للغواية إلا أن يشاء الله .. هذه واحدة أما الثانية فهي أني ماكنت بالقادر على توجيهك إلى هذا النهج القويم الذي تسير فيه منذ يومك لولا هذا الاستعداد الطبعي في نفسك للخير ، يجعلها كالتربة الخصبة تجد البذرة فيها للحياة المتدفعة المتضاعفة . إن قابليتك للتلقي هي التي جعلت من نصحي شيئًا ذا قيمة وأثمار ، وإلا فإن الملهمين أنفسهم ليسوا بقادرين على إثبات الخير في أرضٍ بور ما تزخر إلا بالوحل ولا يترعرع فيها إلا شر النبات .

وشعرت بما يشعر به الغريق يئس من الحياة ثم انتشلته يد منقذة فعاد إلى حياته كأبهج ما تكون العودة وتشبث بها بعد أن طارت تفلت من يديه فهو ما يرى فيها إلا نضارة وبشراً بعد عبوس الموت وكلوحه ..

وأردت أن أستزيد من برّ الشيخ ، وأن أستلهم منه ومضات من التجلي والاشراق أراهما يلوحان الفينة بعد الفينة

على وجهه المتغضن فيلوح لي ذلك الوجه ، وقد اختلطت فيه الوسامة بالجلال ، كأنه أحد الوجوه الساحرة التي تحدثنا عنها الأساطير .

قلت له : أيأذن لي شيخي أن أستوضحه بعض ما أبهم على فهمه ؟ فهزّ رأسه هزّة راضية تغري بالحديث المستوضح . قلت : فإنك قد أبصرت في وجهي اليوم صفاء بعد كدرة فهل تنعكس الاستقامة في نفس المستقيم حتى لتبدو في الملامح والسمات ؟! قال : أجل . فالمستقيم ما يشعر إلا بصدى الاستقامة ، وهو صدى ناعم رقيق يملأ النفس اغتباطًا وسكينة فتطهر الأعراض على المعالم البارزة للعيان .. هي أفعاله وجزاؤها .. أما المنحرف فإن نفسه مسرح لشتى الانفعالات الوجلة المضطربة فهو إما أن يكون قد أساء إلى الناس بانحرافه .. أو أن يكون قد أساء به إلى الناس .. فأساءته إلى نفسه تحط من قواها البدنية كما تحط من قوى الروح .. أما إساءته إلى الناس فإنها تبتليه بالندم والتوجس أو بالقسوة

والجحود ، وكلاهما يحطم النفس أو يبلدها فيظهر أثر ذلك بارزاً باديًا للناظرين . وإنني لأنظر إلى المرء فأعرف من النظرة الأولى ما يعتمل في نفسه من خير أو شر .. فمهما بالغ المرء في كتمانه ومهما تحكم في إرادته وأعصابه فإن شيئًا من باطنه يتسرب إلى ظاهره بلا مراء فيكشف عن حقيقته للناس ، وأبصرت بالشيخ يخالس النظر إلى كتاب أمامه فعلمت أن زيارتي قد قطعت عليه قراءة كانت تستأثر بلبه وتملك عليه أقطاره فحاولت الانصراف حتى لا أطيل من حرمانه من أحب متعة إليه .

وقلت له وأنا أتثاقل في القيام : فإني لأستأذن وبودي إطالة المكوث ولكني أحس أني قد أفرطت في الأثرة كما أفرطت أنت في الإيثار فأستودعك الله إلى لقاء .. بيد أن لي كلمة واحدة ما أزيد عليها حرفًا ، فهل يتسع حلمك لسماعها ؟! قال : فإني مصغ إليك . قلت : أشعر أن الانحراف ذو لونين . أردت أن أسترسل فأوقفني بإشارة من يده ، وقال : لقد فهمت

ما تعني .. إنك أسأت إلى نفسك بإثم فإن ضرر هذا الإثم لازم كما يقول النحاة .. أي أنه يلزمك ولا يتعداك إلي سواك . أما الإثم المتعدي فهو ذاك الذي يمتد بأذاه إلى غيرك فيصرعه أو ينكل به على نحو ما .. وهذا هو شر ألوان الإثم وأشدها وضاعة ولؤمًا ..وإنك لتتوجه إلى الله في لحظة ندم وتضرع فيغفر لك سبحانه الإثم ذلك مهما فحش إن شاء فحسب ، وهو أجدر بأكرمهما .. أما ذلك الإثم الخبيث فإن الآلام المنبعثة من قلوب ضحاياه ترتفع إلى بارئها قبل ارتداد الطرف فما تنفع فيها شفاعة إلا بتحمل واسترضاء .. ولقد يغضب الحق لعباده فيأبى إلا القصاص العادل فاحذره يا بني ما استطعت فإن شره لو بيل .. فلثمت جبينه الطاهر وأنا أستعبر وانطلقت من فوري ، لا ألوي على شيء كأنما تطاردني شياطين ذلك الإثم اللعين .

***

المجلس السابع :

وأحسست إحساسًا مضاعفًا بنعمة التوبة فكنت أصارع الغواية في اللحم والدم ، وأدافع حوافز الشرّ في النفس والروح فأنتصر بعد جهاد مرير عذب ، وأنطلق في وديان الخيال النضرة أجتر ذكريات انتصاري فأحس بشبع وري كما لو تناولت من مائدة كريمة أطيب الألوان وأمتعها. وأذكرني هذا المتاع الخصب بشيخي فهرعت إليه في دارته فألقيته على أهبة مروج فعجبت له كيف يغادر الدارة في مثل هذا الوقت الذي كان يستطيب فيه الوحدة والقراءة والتأمل .. وشاهد في وجهي السؤال الحائر فقال: هلم بنا يا صديقي لنتمش قليلاً في الرياض والغياض على ضوء هذا البدر المتألق فإني لأستشعر الليلة ضيقًا وأحب أن أستروح النسيم وأستجلي القمر وأمتع بصري بالماء والزهر .. ولقد جئت إلي في وقتك ، فما أجمل أن يكون إلى جانبك صديق في ساعة العسرة يشاركك الهمّ ، ويحمل عنك بعض أعبائك الثقال . ويسرح معك في ملكوت الله العظيم .. ولقد كنت أفكر فيك

قبيل قدومك بلحظات فلم أبرح أن أبصرت بك فقلت إن هما إلا روحان تناجيا ثم التقيا .. فهل سمعت روحك مناجاتي «التلباثية » ؟!

قلت له فدتك نفسي أيها الروح الشفاف فليس عندي ما أقوله سوى أن أضرع إلى الله أن يديم علي نعمة مودتك فقد كدت أحسبني غير أهل لهذه النعمة التي تسبغها علي فأوشك أن أخرج من عالم الهيولي المحدود إلى عالم الروح اللامحدود فأرفرف بجناحي على عالم لا بداية له ولا نهاية .. عالم لا يعترف بأزل ولا أبد . وما أراني بقادر على احتمال كل هذه السعادة إلا أن تمدني بقبس من روحك فإنني لأعتقد أن هذه الروح تكفي لأن يستمد منها العالم كله !! فتصاغر الشيخ حتى لقد خلته تلاشى كشبح ! وحتى لقد كدت أفتقده في النور الساجي الذي يشبه نور الفجر يختلط فيه الضوء بالظلمة فما تعرف أفي نور أنت أم في ظلام !!

وتلمسته حتى وجدته فإذا بيده كالثلج برودة ، وإذا

بجسمه يرتجف ارتجافة المحموم ، وإذا به ينشج نشيجًا خافتًا لا
يكاد يبين !! وتطلعت إليه بأسى واشفاق فإذا بنفسه ترتد إليه
وإذا به كأنه يتجسد كرة أخرى بعد أن كاديكون أثيرا !!

قال وكأن صوته يتصاعد من بئر : فإنك لتوشك أن
تطغيني حتى لأظن نفسي ملكًا كريمًا وما أنا إلابشر حقير ! إن
إطراءك ليزدهيني فأحسب كينونتي من نور وما هي إلامن طين .
أفيمسخني المديح كما مسخ إبليس فأهبط من علياء إلى التراب
واستكبر حتى على من خلقني ؟! لا يا صديقي إنني لأرجوك أن
تقتصد في المديح حتى لا ترديني ! إن المديح قد رد الملاك
شيطانًا ، وما أريد أن أكونه فأرفق بشيخك فما هو إلا مسكين
قد يعميه الغرور فما يرى طريقه إلا بين أشتات الفخاخ المنصوبة
فبينا هو ينهج الطريق الهادي إذا به يتخبط في التباريج المضللة
وما اراك تريد لشيخك مثل هذا المصير الفاجع ؟!

قلت له : لقد يعلم شيخي أنه فوق مستوى الغرور
والمغرورين ، وأنني فوق مستوى الزلفى والمتزلفين ، وما كنت

لأداجيه بما ليس فيه ، ولكنني واثق من قوة شكيمته وعمق
إيمانه .. إن الغرور لا يظفر إلا بالنفوس الهزيلة ، وما نفس
شيخي منها ، وإن حاول أن يظهرها كذلك .. قال : هلم بنا ،
فإنك لتغلبني على أمري أحيانًا فما أملك إلا الاستجابة ،
ولست أدري أهي استجابة الضعف أم استجابة المودة التي يمتعها
أن يغلبها من تحب ؟!

ومشينا نتهادى في جو ينفح بالأرج والضوء والسحر
والتطريب وتألق البدر . وارتعش نجم مهوم ، ورفت نسمة عليلة
وتضوعت زهرة شدية ، وغرد بلبل هيمان على شجرة فتانة ،
فجاويه خرير جدول ثمل من خمر الطبيعة .. ونظرت إلى السماء
فإذا هي صفحة رائعة من الجمال الخالد .. وإلى الأرض فإذا هي
بساط سندسي ترصعه أشتات الزهور والنوار بمختلف الألوان
والشيات .. وإذا نحن في عبير مسكر وجمال خلوب وروعة
آسرة .. وإذا كل شيء حولنا متبرج في أبهى حلله وحلاه ،
فصحت في غير وعي أسبح المبدع الأعظم الذي أبدع كل هذا

الجمال .. ورمقني الشيخ بنظرة متطلعة وقد كاد لولا وقار الشيخوخة وهيبة المعرفة أن يصيح صيحتي وينتشي نشوتي .

قال : تبارك الله يا بني على ما صنع فما أبهاه .. إن هذا الإعجاز المثير الذي يحيط بنا ويطل علينا هو آية من آياته الكثر ، ولست أدري كيف لا يتسرب الإيمان به سبحانه إلى القلوب الغلف وهذه آلاؤه ولوحاته وهباته ؟! إن فيلسوفك روسو كان يحلم بمثل هذا الفردوس الذي تحكمه البراءة والطهر .. والحسن والأحلام .. والذي لا يسفك فيه دم ولاينتهك حرمة ولا يغتصب حق ولا تتطاول نفس ولا نفس .. حينما كان يهفو إلى حياة الطبيعة ونحن لها ..

إنه فردوس يدعو إلى الله بكل ذرة من ذريراته .. إن النظر إليه عبادة وتقديس للخالق .. إنه العالم الذي نشتهي أن يكون . أما عالمنا بما يزخر به من متناقضات وبما نشعر فيه من آلام وما نطمح إليه من رغائب .. فإنه العالم الذي ينبغي أن يكون .. لا بد أن نعيش فيه على علاته وآفاته .. أما هذا

العالم المسحور فهو العالم الذي نهرع إليه إذا حزبتنا المكاره والأوجاع لنخفف بنعمائه مما يحز بنا ، ولنجتلي فيه من صور الجمال ما يعمق إيماننا بالخالق المبدع .. وما يملأ قلوبنا خيراً وحبًا وسمواً .. وقلت فإنني لأقبل أن أتحلل من كل مسؤولياتي وأتخلى عن كل مطامحي وآرابي لأسكن هذه الجنة الحالمة وأصغي إلى آنّات هذه الناعورة الثكلى.. وإلى ربابة هذا الراعي السارح مع غنيماته بين مورقات الغصون ووارفات الظلال .

إنني أحس أنني أحيا هنا في كل ثانية حقبًا وأجيالاً وأنا هانئ سعيد .. مالي ومالكل ما تعج به حياتنا من صخب ومجون وكد وبأساء وبغض وشحناء ؟! إنني أعبر موكب الحياة مرة واحدة لن تتكرر ، فلماذا لا أجعل منه عبوراً ممتعًا حفيلاً بالمسرة والهدوء؟!

قال الشيخ : أما أنا فإنني أرفض هذا التحلل وأرفض هذا الهروب من الجحيم إلى الجنة !! إن في هذا التملل والهروب معنى الأنانية المستأثرة ! إنني أعيش مع عالمي ولو عشت في

مأساة ! وبحسبي أن أشاركه سراءه وضراءه ، وأن أحاول العمل على سعادته وإرشاده ! إن السعادة التي أشعر بها يومئذٍ سواء في نجاحي أو إخفاقي .. لهي الفردوس المنشود ! أتظن - ياشاعري المبهور - أن هذا الفردوس الفاتن .. لوأنك جاورته سيبقى هو هو بروعته ونضرته ولألائه وأحلامه في عينك وخلدك إلى الأبد ؟! كلا أو فاتك واهم مفتون .

***

المجلس الثامن :

إن إدمانك النظر إلى الحسن بشتى صوره وألوانه ، في الإنسان أو الحيوان أو النبات ، في كل مظاهر الطبيعة الخلابة ، منظورة ومسموعة ومحسوسة .. كفيل بأن يجعلك تعتاده ثم تسأمه وتتطلب التغيير وقل مثل هذا في كل ما تلتذ به الحواس مأكولاً ومشروبًا ومشمومًا وما إلى ذلك مما يبهرنا ويمتعنا ويلهمنا .. إن الحيازة تبدد السحر وتضعف البريق ، فنحن نهفو إلى الشيء ونسعى إليه ما دام بعيداً عن متناولنا ، فإذا اقترب وتناولناه اغترفت حواسنا منه بمقدار لهفها عليه . وما تزال تغترف حتى تشبع وتزهد ويتلاشى السحر والبريق . ألم تر كيف أن أحدنا يغرم بامرأة فتمتلك عليه حواسه وتستأثر بلبه وهواه فما يزال يركض وراءها حتى ينالها وتنضوي تحت سقفه .. فإذا بها تصبح بين عشية وضحاها في نظره امرأة عادية ما تمتاز عن غيرها من النساء ؟! وإذا به يتطلع إلى سواها ممن هن دونها قامة وملامة ؟! فلا تخدعنك نفسك عن الحقيقة .. حقيقة الحياة

التي فطرنا عليها فما نستطيع عنها حولا .

وغلبني منطق الشيخ فلم أتجاوز الصمت والتفكير فيما قال . ووجدتني أقول له بعد لأي : رعى الله شيخنا الخير بعنايته .. أفنسأم الجمال واللذة ، وننصرف عنهما إلى ما دونهما ؟ قال : نعم ، أحيانًا حينما يتخمنا الجمال واللذة فما نجد محيصًا من التخفف والتبديل فلقد يطيب لك طعام معين فتكثر من تناوله فإذا أنت داومت عليه أحسست منه بملل ورغبت فيما سواه ، ولو كان أقل إمتاعًا وأضعف نفعًا ، ولقد يحلو لك المشهد أو المناخ أو ما عداهما مما يحلو ويطيب للحواس فتعب وتستمتع وتحسب للوهلة الأولى أنك لن ترى خيراً مما رأيت ، وأنك ستلقي برحلك في هذا المقام الكريم فما تفارقه إلا لماما فإذا أنت أدمت النظر والمكوث فإنك لن تلبث أن تضجر وتطلب التجديد .. هذه هي طبيعة البشر ، ولعلها بهذا السأم والتقلب خير منها لو قنعت بحالة واحدة .. فلقد يؤثر ذلك في نظام الكون الذي أسس على نظام دقيق يرمي إلى أبعاد قد لا

نستطيع أبصارنا الكليلة اختراقها . وأفحمني منطقه ولكنني
كنت أرمي إلى أن أعتصر من الشيخ ما أطيق اعتصاره من علم
وحكمة ولو تدرعت بالصفاقة قلت له : فما هو تعريف الجمال
واللذة فلقد بدأت المفاهيم تهز في نفسي ولن يثبتها غير شيخي
اللوذعي .. قال الشيخ : فإن الجمال في أدق تعاريفه هوتقسيم
وروح.. فالأجزاء المتناسقة المتألقة تضفي على الجسم ملاحة
تجتذب كالتوزيع الموسيقي الذي لا نشاز فيه تمامًا .. هذا يريح
السمع فيطرب .. وتلك تريح العين فتعشق .. والروح الخفيف
يضاعف من تأثير التقسيم وحلاوته .. ولن يكون الجمال جمالاً
قط إذا هو خلا من حسن تقسيم وخفة روح ، وكل ما عداهما
فضول قد يزيد في الحلاوة والتأثير ولكنه لن يصل إليهما ..
دونهما .. وما أعرف جاذبية محرومة عن هاتين الدعامتين إلا
أن تكون الجاذبية الحيوانية التي يلتهمها الجائع المحروم لأنه لم
يجد سواهما طعامًا لحيوانيته المشابهة .

وتبسم بمرارة فعرفت أنه يحاول أن يضع السدود أمام

شموخ إنسانيته وعظمتها فما تستطيع السدود أن تحجب هذ
الشموخ والعظمة .. وهو كذلك أبداً كبير يتصاغر .. فما أروع
هذا التواضع منه في دنيانا التي يتطاول فيها الصغار . قلت له
يا شيخي الجليل .. حسبك ظلمًا لنفسك واتهامًا لها فإنك
لتعرف .. كما أعرف .. أنك تتحامل عليها بقسوة .. وإن له
من الحق علينا وعليك أن ندرء عنها مثل هذا الاجحاف العقوق
فهل لك أن تمضي في حديثك الماتع فتصل منه ما أنقطع .
فأسبل من أهدابه كأنما هو يفكر أو يستذكر ... قال : وأم
ثنتاهما فإنها لذة الجسد والحواس وهي لذة مشاعة بين الغالبي
الساحقة من الناس وأصدق تعريف لها أنها المتاع المستهلك
فهي تمتعك بقدر ما تستهلكك ، لن تستثني منها لذة واحدة .
هي متاع تدفع ثمنه من صحتك أو مالك أو وقتك .. أو سمعتك
وكرامتك .. أو كلها معًا في أكثر الحالات .. سم لي أية هذ
الاستهلاك المفني .. ولقد قال أوسكار وايلد : خير وسيل
للتخلص من الإثم .. الانغماس فيه ؟! وكان بذلك مخدوعً

وخادعًا في ذات الوقت . فلقد استهلكه الإثم حتى أودي يه ولم يدع له فسحة من الوقت للتفكير في التخلص ! إن إدمان اللذة أو الإثم ـ فهما يكادان أن يكونا توأمين في كثير من الأحيان ـ ينهك الروح والجسد ويستعبدهما حتى لا يستفيقان إلا وهما على شفا هاوية فأما السقوط المهلك ، وأما الارتداد المفاجىء الوجل إلى الخلف واحتمال قسوة التخبط والتحطيم وهي قسوة لا يعرف هولها إلا من عاناها فدفع بمعاناته ضريبة من أبهظ الضرائب ليسترد بذلك كيانه فينهج من جديد نهجًا أكرم وأقوم ، ولك أن تقول : إن اللذة إما أن تكون سمو روح أو تهالك جسد ، وأنها في حالتيها تمتع يفارقها وتكبده . ولكنها في سموها تكبده لترفعه ، وفي تهالكها تكبده لتضعه ، فحذار يا بني من إغراء اللذة المتهالكة فإنه إغراء قتال . ولقد كدت ، وفيّ بقية من شباب وقوة أن أستجيب لهذا الإغراء ، بل ـ وأستغفر الله ـ لقد استجبت له بالفعل ، لولا أن تداركني الله برحمة منه فكانت الاستجابة إلمامًا لا إدمانًا .. وإن لهذا الألمام لندوبًا في روحي لم

تندمل بعد ، فما زال يعاودني منها ألم يشتد حينًا ويضعف آخر، فإياك أن تقع في التجربة .. وإذا أنت وقعت فيها فبادر إلى الخلاص ..

إن تربة اللذة لينة تغوص بها القدم كلما أطالت الوقوف فإن لم ينتزعها الواقف غاص فيها كله ولات حين مناص .. وكأنما أزهق هذا الحديث قوى الشيخ ، واستأثر ذكرياته الدفينة ، وشعرت منه بتراخ وكلال أرحته منهما بالقيام أستأذن ، ورجوته أن لا يطيق بزياراتي ذرعا فإنني ما أطيق لها انقطاعًا .. فاستجاب إلى الرجاء وهو يبتسم ويحوقل .. وودعته وانصرفت.

***

المجلس التاسع :

واجتمعنا ثانية في جو تسوده الكآبة والحزن ، فلقد مات قريب للشيخ كان يمحضه الود والحنان ، وكان يهش إلى لقائه ويأنس إلى مخالطته وغم طبعه الانطوائي .. ورأيت للفاجعة خطوطًا بارزة في وجه الشيخ لو نطق الألم بألسنة فصاح لما نطق بأفصح منها .. لقد كان مرهف الحس على بليغ جلدة ، وكان وجهه كأنما يعكس سريرته فتطالعها كما تطالع في كتاب مفتوح . ولقد يكون هذا ضعفًا بشريًا ، أويكون وضوحًا وبساطة أو ترفعًا واعتداداً ، سمه كيف شئت ولكنه سجية ظاهرة في الشيخ ما يستطيع لها إخفاء أو تغيراً .. كان لا يستطيع إخفاء مشاعره ولو أراد ! ولقد قلت له مرة ـ وأنا أحاول أن أجعله يتفادى عداوات كثيرة قد يؤذيه بعضها ـ : أعز الله شيخي فإنه لا يبالي بما يظهر من مكنونه .. وإنه ليجر أحيانًا على نفسه محاذير قد تضر .. فماذا لو أنه حرص بعض الحرص على أن يتحكم في عواطفه حتى لا يظهر منها ما قد يوبق ظهوره ؟ .

فكأن الشيخ يبتسم ويقول لي لا عليك من طبعي أيها الحبيب فإنني لحفي به فخور ، ولا عليك من أولئك الذين تغيظهم مجاهرتي في صمتها وحديثها وتملأ قلوبهم حنقًا وموجدة ، إن هذا الطبع في صفاء الضمير وهو خير ألف مرة من طباعهم الكدرة ..إنه لا يحمل مكراً ولا خبثًا ولا تكر به كراهية ولا حقد .. إن طباعهم آنية تكتظ بالصديد وتنفث السموم .. ووجوههم كالتماثيل الشمعية ما تنبض بحب ولا ترف بعاطفة ! أفتريدني أن أكون مثل هذه الأوشاب ؟! أما عداوتهم فهي شرف لي .. إنها تحدد الفروق بيني وبينهم وتجعلني منهم كنجم يطل على التراب ! لن تضرني شيئًا هذه العداوات التافهة ، ولن تضيرني فأنا عنها بمنأى .. بخلقي وكرامتي وخلالي ! .

قلت له : فإنك لخليق بكل هذه العزة ، وجدير بالمزيد من التكريم ، ولكنني ما رميت إلا إلى التحرز فحسب .. ما ضرني أن ألقاهم كما يلقونني ؟ وأن أجزيهم ـ كما يقول أبو الطيب ـ على ابتسام بابتسام ، ما دام ودهم خبًا فلعل ذلك أن يكون

أدعى لكيدهم وأشفى للصدر ؟! ما ضرني أن لا أكشف عن مقاتلي لمن يسدد لها السهام ؟! ألا يكفي أن لا أسدد له سهامي كما يسدد ؟! فما بالي أعينه أنا على التسديد ؟! إن لؤم بعض الناس قد يسول لهم أن الوضوح بلاهة وأن الغموض دهاء ، لذلك فهم يلجأون إلى الغموض كدروع تقيهم من الضربات ، وهم في ذات الوقت يستغلون الصراحة المترفعة .. الصراحة التي تقف دائمًا في النور عارية كالحقيقة شامخة كالطود .. تستغل بساطتها وانكشافها فتضرب وتصيب فإذا أردت أن ترد لها الضربة ، تحصنت بالظلام وتقنعت بالجمود فلا تراها .. وحين تراها لا تكتشفها لأنها مقنعة بقناع كثيف من اللؤم والخداع والمداجاة .. فكأنك تبارز وأنت أعزل خصمًا مدججًا بالسلاح فلا يتحقق التكافؤ والإنصاف .. إنني أرى في هذا الوضع ظلمًا للنفس واستهانة بالخصم ، قد يوردانها موارد التلف والهلاك .. وعوفيت من هذا أيها الألمعي الحازم .

وبرقت عينا الشيخ كما تبرق النصال ، فخفت من كنت

أحبه ، وخشيت من تلك البوارق الصاعقة ولكن عيني الشيخ سرعان ما استردتا نظراتها الرقيقة الوادعة فأيقنت بأن السماء التي تمطرنا بالرحمة هي ذاتها التي ترمي بالصواعق وتدوي بالرعود ، فتحيي وتميت بإذن ربها .. وقال الشيخ وكأنه لحظ ما أعتراني من خشية وقلق ، وما اعترى نظراته من تحول ورجعى .. لا بأس عليك يا بني فلقد تقول الصواب ولكنني هكذا خلقت وما أبرئ نفسي ، ولكنني أرتضيها كما هي .. ألا فاعلم أن من الصراحة ما يقي ومن الغموض ما يدمر ، ولرب صدر مكشوف أحصن من صدر مدرع ، ولعل من الصراحة ما يخيف الغادرين أكثر مما يخيفهم الالتواء والتلون .. إن الصريح هو إنسان شجاع ، والشجاعة بطبعها تطمئنك وتخيف خصمك . ولقد يلقي إليك بسلاحه وهو مدجج وأنت أعزل كما تقول .. رهبة منها لا دافع إليها إلا الشجاعة التي يتحلى يها الصرحاء ويخافها الجبناء .. وما أود لو أن لي كنوز الأرض مع حقارة واحتيال ، فلا تخف على شيخك من مكر

الماكرين فإنما يدفع الله عنه بطهره وبساطته ، ويوقع بهم وهم يتوقعون السلامة ، كن مثلي ـ إن استطعت ـ وما أظنك إلا مستطيعًا ، ودع للتافهين المكر والحقد ينهشان في صدورهم كما تنهش الأفعى فرائسها .. ضرب مثلي برد الراحة وآمن السكينة ، ودع أولئك في قلقهم وسهدهم واحترافهم .. واحمد الله على النجاة السلام .. ودمدمت بشكر فما أعرف لشيخي علي إلا نعمة أثر نعمة ، وما أطيق لله مكافأة .. ليس عندي له إلا العرفان والتقديس ..

ولقد يكون فيهما بعض المكافأة من عاجز إلا عنهما .. لك الله ياشيخي ما ولجت وليجة إلا وجدتك ماثلاً أمامي .. مشعًا بنور محليًا في سباق ، مؤثراً للسوي على الذات .

وأحببت أن أعود بالحديث إلى مبتدئه ، وأن أواسي الشيخ في خطبه .. فقلت أراح الله شيخي مما أحزنه ولا فجعنا في سلام نفسه واغتباطها فإن لنا في هذه النفس لنصيبًا وما نبتغي لها إلا أن يرفرف عليها الحبور والسكينة .. فإن نحن شهدنا بها

جزعًا جزعنا فما نهدأ إلا أن تهدأ .

قال الشيخ : وأراحك الله يا بني فإن في تأسائك هذه ما يسكب في النفس برداً وراحة ، ولئن حزنت فإنني لست بجزوع ولا هالع .. إن الحزن يغزو النفوس القوية ولكنه لا يزلزلها ولا يغفي بها إلى جزع أو هلع .. ولقد أحسست يوم أن فقدت «إبراهيم » أن شعبة من نفسي قد سقطت عني فلن تعود .. إن مصابنا فيمن نحب هو المصاب الجلل لأنه يتحيف من النفس جزءاً منها وجزءاً غاليًا ولقد تساقط أحبائي أمامي كما يتساقط أوراق الشجر في الخريف .. وكلما سقطت ورقة أحسست بوحشة مخيفة وألم قارص ، وأحسست أنني على وشك السقوط والانهيار ، فأتهيبها آونة وأتمناها أخرى .. إن وحشة النفس هي أقسى ألوان الوحشة وأدعاها إلى الرهبة . ولقد تمر بي فترات أزهد بها في الحياة حينما أرى الفراغ المخيف الذي يحيط بي من كل صوب لولا أنني أهرع إلى الله فأجد عنده برد السلوى ونفاسة العوض ، ثم أهرع بعدها إلى الكتب فأنشد بين ضفافها

شيئًا من العزاء .. ومن المتاع .. ثم توافيني أنت فأطوي نفسي في نفسك وأحيانًا سويعات أجد فيها لمحات من الصفاء والانشراح .

***

المجلس العاشر :

تهب علينا نفحات ندية شذية من شهر رمضان المبارك كنا نفتقدها طوال شهور العام فما نشتمها ، وتملأ بها صدورنا الصادية إليها إلا حين إقباله .

ولن نستطيع مهما أطنبنا في القول أن نفي هذا الشهر حقه من الثناء . ولا من التكريم بعد أن أثنى عليه الله وكرمه وفضله على سائر الشهور .. فلئن كان تكريم الله له فرضاً .. فلن يكون تكريمنا له ـ على أفضل اعتبار ـ إلا نافلة من القول.. ولكنه الواجب الحتم علينا على كل حال .. لا مناص منه .. ولا معدى عنه .

وإذا كان هذا الشهر المتميز خيراً وبركة على الناس أجمعين . فهو على شيخنا ومريديه مصدر وحي وإلهام . ومجال حوار ونقاش يديره الشيخ بألمعية تصل إلى حد الإبداع .. إلى معارج العبقرية التي لا يستطع التطلع إليها إلا القلائل من الأفذاذ المعدودين .. ولقد عرفنا الشيخ في حلقات سابقة من

حواره مع مريديه نشرناها ليعم بها الانتفاع .. ذلك لأن الشيخ بقية من خلاصة رحيق البشرية في العلم والمعرفة .. وفي النباهة والذكاء .. وكان محيطًا بالكثير الكثير من علوم البشرية قديمها وحديثها .. كما كان حجة في التفسير والحديث والقصة .. أما إحاطته بالآداب الإنسانية في كل العصور فحدث عنها ولا حرج فما أنت ببالغ مهما أطنبت . لذلك كان مريدوه يرتقبون شهر رمضان بفارغ الصبر . فلقد كان الشيخ في هذا الشهر يفيض بعد عظيم كما تفيض البحار في أوقات لها معينة يقول علماء الفلك إنها ترتبط أشد ارتباط بالقمر هذا الكوكب الوضاء .. فكأن رمضان بالنسبة للشيخ هو هذا الكوكب المشع .. ومع هذا فيبقى البحر ، بحراً كما هو بحكم طبيعته .. كما يبقى الشيخ هو هو في سائر أيامه وشهوره وأعوامه ..

ولقد وددت في عامي هذا أن أخلد إلى الهدوء والسكينة في شهر رمضان هذا .. وأن أكتفي بحضور دروس شيخنا فيه والاستماع لها والإفادة منها كعادتي كل عام أنا وإخواني من

المريدين .. لكني وجدتني أمام سيل جارف من أولئك الذين استمعوا وقرأوا ما كتبته عن الشيخ وحلقات دروسه فأعجبوا بما سمعوه وبما قرأوه إعجابًا عظيمًا .. فلما علموا أنني في عامنا هذا سأكف عن الكتابة وأتفرغ للسماع .. لا موني لومًا شديداً وأصروا على أن أشركهم بما أكتبه عن الشيخ ودروسه ليخرجوا من هذا بفائدة ومتعة يرتقبونها من عام لعام .. وحاولت فلم أجد لمعاذيري قبولاً لديهم .. فوعدتهم خيراً . وأرجو من الله أن أستطيع الوفاء بما وعدت .. فإلى اللقاء في أول حديث أحضره لشيخنا .. ثم أنقل إليهم ما سمعته وما شاركت فيه من حديث .. وما أفاء به علينا الشيخ من وارف ظلاله وثمار رياضه . أمتعه الله بالصحة والسعادة وطول البقاء .

المجلس الحادي عشر :

تحلق المريدون حول شيخهم في الليلة الأولى من شهر رمضان .. تحلق الهالة حول البدر .. وكان الشيخ هاشًا باشًا على شمته ووقاره .. كان هذا الشهر له بمثابة المهماز الذي يلهب كل أفكاره ومشاعره .. وكان فيه يشف روحًا وينشط جسد أولئك الذين نذروا أنفسهم لله ثم للعلم النقي الخالي من الشبه والشوائب .. يبثه بين الناس راضيًا مطمئنًا لا ينشد من ورائه مالا ولا ذيوع صيت .. وكان في دروسه التي يلقيها على مريديه في هذا الشهر بسيطًا أشد البساطة .. رائع الأسلوب واضح .. فكانت المسائل الكبرى والأمور المعقدة تتحلل أمامه إلى جزيئات جلية مفهومة لا لبس فيها ولا غموض فتجد طريقها إلى إفهام مريديه ممهداً لاحبًا ما يجدون عناء ولا جهداً في فهمها واستجلاء غوامضها .. وكان هو لا يذل بهذه الموهبة ولا يزهو بها ، بل إنه ليقول أحيانًا لمريديه معذرة إن كنت لم أستطع التوضيح أكثر مما فعلت . فهذا جهدي وهو جهد المقل .. فكانوا

يتضاءلون أمام هذا التواضع المستعلى على الذاتية استعلاء لا يحظى به الكثيـرون ممن هم دونه مكانة وعلمًا بما لا يخضع لقياس ..

وكان هو يقول لهم .. يا بني إن البشر محدودو المدارك .. غير قادرين على الإحاطة والشمول .. فهما ليسا من خصائص البشر بل هما مما استأثر به الله وحده سبحانه .. وتفضل على قليل من عباده بشيء منه .. وما أنا من هذا القليل إلا في آخر الصف أسأله سبحانه أن يلهمني الصواب وأن يهبني من لدنه علمًا وعرفاناً .. هذا هو تواضع العلماء الأجلاء .. فبقدر حظ كل منهم من العلم بقدر تواضعه وإقراره بالجهل العاجز .. من هنا كان للشيخ في نفوس مريديه من الحب والإكبار ما لم يحظ به إلا قلة نادرة من العلماء الأفذاذ .. أما مكانتهم في نفس الشيخ فذلك ما يعجز في وصفه وتسجيله .. أرأيت الأب العطوف وهو يحنو على ابنه الوحيد البار بشغف يطل من عينيه وتصرخ به كل جارحة منه بهذا الشغف المسيطر ؟! ذلك هو حال

الشيخ مع كل فرد من مريديه .. يوزع بينهم عطفه وحنانه وأبتساماته ثم لا يضن من البر بشيء ما استطاع السبيل إلى ذلك .. ولقد يؤثر أحيانًا بعض هؤلاء المريدين بمزيد من العطف والبر لا لشيء إلا لحسن استيعابه للدرس وتفوقه على لداته .. وكأنه يجعل من هاته الزيادة في الإيثار حافزاً للآخرين ليكونوا كلهم سواسية في التفوق والتبريز .. أما بعد هذا فكلهم لديه سواء .. كلهم أبناؤه ..

وحتى مريده الذي كان يؤهله ليحل محله بعد أن يغادر هذه الفانية ويذهب إلى الرفيق الأعلى .. حتى هذا المريد المتفوق كان نصيبه من الشيخ ذات أنصبة إخوانه إلا في تقدير ذكائه ومواظبته وحسن استيعابه بحيث كان بمثابة المعيد لدروس الشيخ على رفاقه في كثير من الأحايين تحت إشراف الشيخ ومراقبته ..

***

المجلس الثاني عشر :

ابتدأت حلقة الدروس الأولى .. بسؤال من أحد مريدي الشيخ وكان ذا طبع سوداوي مكتئب . فلقد مرت به أحداث جسام لم تقو روحه ولا هيكله عليها فناء بها وضاق ذرعًا وأصبحت الحياة في وجهه قاتمة هامدة لا نبض بها ولا وميض .. فهو يعيش كطيف .. كشبح لا يسير إلا في ظلام دامس . وكان إخوانه يرون هذا منه ويعرفونه عنه فما يملكون له إلا الإشفاق الودود .. إشفاق المحب .. لا إشفاق الراثي فإن نفس الحر لتضيق أحيانًا بالرثاء ضيقها بالشماتة .. وكان الشيخ يعطف عليه عطفًا شديداً ولا يلمس جراحه إلا بحنان وتفهم . وفي بعض الأحيان كان يطيب لبعض زملاء مريدنا هذا أن يركبوه بالعبث والمماجنة لا ليجرحوا من مشاعره بل ليساعدوه على الجلد والاحتمال وقليل من التفاؤل إن لم يكن كثيره بالنسبة إليه يكاد أن يندرج تحت قائمة المستحيلات .. وكان الشيخ حين يرى هذا منهم يزجرهم عنه زجراً واعيًا .. فهو يبصر ضيق مريده بهذا

العبث واستنكاره له وتخريجه مخرجًا يتلاءم مع طبعه المتشائم..

قال المريد لشيخه في أدب جم تغطيه مسحة من الكآبة :

إنني لأتساءل يا شيخي الحبيب عن السعادة في هذه الحياة الدنيا .. هل هي حقيقة .. أم خيال ؟ هل هي وهم أم يقين ؟! فلا أكاد أجد لنفسي المتطلعة من جواب مقنع . فهل لشيخي أن يتفضل علي فيميط الحجاب عن وجه المحبوبة التي يتطلع إليها الجميع ليبصروا محياها الباهر فيصدهم عنها حجاب صفيق ؟!

وتبسم الشيخ بوداعة ولطف .. وقال له يا بني لشد ما أنا حزين من أجلك .. ولشد ما حاولت أن أخفف من لواعجك فأعيتني المحاولة وغلب علي الحزن .. على إنني سأحاول أن أشرح لك بعض الشرح الذي أستطيعه . وأن أكشف النقاب .. أو أزحزحه على الأقل إن لم أستطع كشفه لتبصر ونبصر جميعنا هذا المحيا الطلق الذي لا يسخره الله إلا لمن شاء من عباده .. للصفوة المختارة عنده سبحانه .. فإنها لسر مستغلق إلا على أولي البصائر النيرة .. ولعلني أكون منهم فأستطيع ـ بعون من

الله وتوفيق ـ أن أستجلي بعض جوانب هذا السر العظيم .. ولعل بعض إخوانك أن يكون لديه ما ليس عندي فيساعد على هذا الجلاء الذي نسعى إليه ونتمنى الظفر به .. وتهللت أسارير المريد بكلام شيخه فإنه ليعرف عنه أنه في كل ما يصدر عنه .. يبلغ الغاية ويصيب المحز . فهو يعمل رويته اللماحة أعمالاً شديداً قبل أن يصدر الحكم القاطع الذي لا يخطىء هدفه .. وتهللت مع أساريره أسارير كثيرة هي أسارير زملائه في حلقة دروس الشيخ .. فهم يعرفون أنهم يسمعون من الشيخ عجبًا من العجب عن السعادة يفيدون منه ويستمتعون به .. وتكلم الشيخ قال : تسألني يا بني عن السعادة ، ولقد فكرت كثيراً منذ يومي هذا ومن قبله عن تفسير جامع مانع كما يقولون لمدلول السعادة لكنني عجزت عن الوصول إلى هذا التفسير الذي يضع مدلولاً شاملاً لمعنى السعادة .. على أنني أرى أن السعادة المطلقة .. وأعني بها تلك السعادة التي لا تشوبها شائبة قلق ولا وجل ولا كدر .. هذه السعادة ليست من المتاع الذي يستمتع به البشر في

حياة الدنيا هذه التي بنيت على كدر .. وإنما هي خصيصة من خصائص الحياة الثانية الخالدة لأنها من أنفس الذخائر وأغلى النعم .. ولأنها لو أتيحت لبشر فقد يهتز بها حجاه وأحاسيسه .. وأنفس الذخائر وأغلى النعم قد أدخرها الله لعباده المؤمنين في الدار الآخرة ..

على أننا إذا قصدنا بهذا التعبير ـ السعادة ـ ما يمكن أن يتأتى للبشر منه في دنياه .. أي السعادة النسبية .. فإنني أعتقد أن خير تعريف لها .. هو التوازن ، فإذا استطاع إنسان ما أن يظفر بهذا التوازن بين الروح والجسد .. بين العقل والشعور .. بين الغرائز والإرادة .. بين كل ما يعتلج في نفوسنا من خير وشر وزهد وطموح ونزعات ونزعات . إذا استطاع فإنه إنسان محدود وقريب من الكمال بقدر ما يستطيع البشر أن يقاربوه .. والحق أن هذا التوازن إذا هو تحقق فهو الدليل الصادق على قوة إرادة خارقة للمألوف ، وهو يفضي بصاحبه للحق وللخير وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما كافة المزايا

والخلال النبيلة وترتكز سعادة المرء في داريه . وما الحق والخير إلا جماع كل فضيلة ومأثرة .. لقد حاولت يا بني بجهدي الضئيل أن أحقق لنفسي هذا التوازن فأخفقت إخفاقًا ذريعًا لكن هذا الإخفاق لم يفض بي قط إلى القنوط . فما يقنط من رحمة الله وفضله إلا أبله خاسر .. من أجل هذا فأنا أحاول وأحاول حتى يتم لي بعون من الله وتوفيق ما أصبو إليه .. ولقد رأيت أحد أشياخنا الأجلاء وهو في حالة تدعو إلى الغضب الشديد .. ولكني رأيت ثغره يبتسم طلقًا مع أن يده اليمنى التي كان يحمل بها كوب ماء ترتعش ارتعاشًا واضحًا من فرط ما يعاني ولكن كل ذلك لم يؤثر على قوة إرادته فأين نحن من أولئك العباقرة الرواد ؟!

ولي تعليق بسيط على معنى السعادة يكمل ما أسلفت من قول وإن كان لا يخرج عن نطاقه .. ولقد ضاق بنا الوقت وحان لنا أن نغادر مجلسنا هذا إلى غد مأمول إن شاء الله .

***

المجلس الثالث عشر :

ولما اكتمل حضور المريدين في ليلتهم هذه تبسم الشيخ محييًا في وجوه الجميع .. واتسعت ابتسامته وهو يحدق في وجه مريده السائل الكئيب .. قال : لقد قلت ليلة البارحة أن عندي تعليقًا بسيطًا على معنى السعادة يكمل ما قلته ولا يخرج عن نطاقه .. ذلك هو أن هذا التوازن النفسي والفكري يتطلب من المرء جهداً شاقًا كل المشقة فليس تحقيقه بالأمر السهل .. فإنه لأشد مشقة من المصارعة الجسدية المضنية . إنه جهاد .. ولقد يكون عند الله أعظم من الجهاد في سبيله .. لأن على صلاح الفرد يتوقف صلاح الجماعة .. ولهذا جاء في الحديث الشريف « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد هو من يملك نفسه عند الغضب » أو كما قال عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم . ولقد يكون لدنيا من عند الله كما هو الحال عند الرسل والأنبياء ثم عند أولياء الله الذين قال عنهم سبحانه « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فيكون حينئذ في أوجه وأكرم منازله .

ولا ريب أن جميع هؤلاء سعداء باتصالهم الروحي بذات الله . فهم يستمدون عنه ويستلهمون ـ ويعرفون ـ على حبهم العظيم لله وخشيتهم القصوى منه ـ . يعرفون ما لهم عند الله من مكانة .. وما لهم في الآخرة من جزاء ويعرفون إلى جانب هذا تفاهة هذه الحياة التي نعيشها فنعيش على هذه التفاهة في صراع دام مرير فيجدون اللذة كل اللذة في الزهد فيها والصدوف عنها إلى ما هو أكرم وأخلد وأدعى إلى رضا بارئ هذا الكون العظيم .. على أن الجهد الفادح الذي يبذله الفرد المتميز في سبيل تحقيق التوازن الذي عرفناه آنفًا .. له لذة وبه سعادة . فإن الزارع ليبذل من الجهد ومن الوقت بذلاً سخيًا في سبيل إحياء أرضه وازدهارها .. لماذا ؟! لأنه يعرف جناه فلقد تذوقه مراراً وعرف في هذا التذوق لذته الكبرى .. وإنه ليقتطف الثمرة أو الزهرة فيتذوقها طعمًا وشمًا بأكثر من حاسة واحدة .. بجميع حواسه .. أليستا هماثمرة عرقه وكدحه

وكفاحه الطويل ؟! فالتوازن الذي يثمر السعادة له طرفان .. أولهما مرٌّ شديد المرارة .. والآخر حلو شديد الحلاوة .. هذه هي السعادة في اعتقادي .. راحة واطمئنان بال ونقاء سرير وجهد دائب للخير وعزوف عن الشر في الدنيا . يقابل كل هذا أمل وطيد في رضا الله وحسن المنقلب . فما أسعد من يهيء الله له هذا . فقد هيأ له رشداً كبيرًا .

ارتاح المريدون ارتياحًا شديداً إلى شرح الشيخ عن السعادة ومفهومها .. وعادوا ثانية إلى زميلهم السائل يركبونه بالدعابة التي لا تجرح شعوراً ولا تؤذي كرامة .. إنهم جميعًا إخوة في أسرة كبيرة متحابة .. كبيرها وراعيها الشيخ .. فما ينبغي لهم أن يسيئوا إلى أحد منهم .. لن ترضى ضمائرهم .. ولن يسمح شيخهم .. وابتسم زميلهم هذه المرة وزايله اكتئابه ولو إلى حين .. فلقد أشبع الشيخ نهمه وأروى ظمأه بما يبينه من كنه السعادة

وجوهرها .. وبنقلها ووسائلها .. فقابل دعاياتهم بدعابة مرحة وشاهد الشيخ هذا الجو اللطيف فأثلج صدره ما شاهد .. وتحفز المريدون للأسئلة يزحم بعضهم بعضا . ويود أن لو كان السابق إلى الشيخ والحظوة بجوابه .. وبش الشيخ في وجوههم راضيًا مغتبطًا .. ثم أشار إلى أحد مريديه وكان أولهم في التحفز للسؤال . فلقد كان الشيخ يراقب مريديه مراقبة دقيقة منصفة .. ثم يبدأ بالأول منهم فيحترم المريدون اختيار شيخهم ويرضون به .. فهم يعرفون عنه أنه لا يحيد قيد شعرة عن منهج الحق .. كما يعرفون أنهم برمتهم سواسية لديه .. وأنه يحافظ محافظة مثلى على مبدئه القويم . فأنصتوا إلى السؤال ليستوعبوا الإجابة عليه .. قال المريد لشيخه : فإنني أيها الشيخ الجليل قد قرأت كثيراً واستمعت كثيراً وشاهدت كثيراً من النقاش الذي يدور في الكتب .. وفي المحاضرات والأندية .. وفي كل وسائل الإعلام الحديثة .. عن قضية المرأة في عصرنا

هـذا . فبعضهم يستعلي بـها استعلاء شديـداً .. وبعضهم ينحدر بها إلــى قـرار سحيقة .. ويشـتد الحـوار والهجوم والـدفـاع عـن حقـوقـها وواجبـاتها .. حتى لقـد اختلف النـاس اختـلافًا شديـداً فـي أن الأولـى والخيـر لـهـا ولمجتـمعـها أن تلـزم دارها لتقـوم بـواجباتهـا نـحو زوجـها وولـدها ومنزلها وهـو رأي قـديم ذهب إليـه فـيلسـوف المـعرة أبـو العـلاء فطالـب بتـعليـمـهن الطـبخ والكنس وتـرك القــراءة والـكتــابـة كـمــا يقـول فـي إحــدى قـصـائــده : « وخلـوا قـراءة وكـتـابـة » وهـو رأي كـمـا يـرى شيخنا مبالغ فـي الإجحاف بحقـوق المـرأة مـسرف فـيـه .. أو أن تـأخـذ بقسط مـن التعليم يفيدهـا حتى فـي واجبها تجاه الـزوج والــولـد والمنـزل .. فـإذا ظهـرت منهـا بــوادر نبـوغ واجـتـهـاد ورغـبـة فــي مـزيـد كـان مـن حـقـهـا علينا أن نـحـقق لهـا هــذه الـرغـبـة ولا سـيـمـا فـي تلك الـنواحي الـتـي تكاد تكـون حـاجـة الناس فيها إلـى المرأة أكثر مـن حاجتهم إلـى الـرجل كالتمريض والطب النسـائي والتدريس لبنات جنسـها ومـا إلـى ذلك ممـا هـو

للمرأة وأحوج منه للرجل .

وأسرف أناس إسرافًا قد يضر بقضية المرأة ذاتها فقالوا بضرورة مساواة المرأة للرجل مساواة كاملة في الحقوق والواجبات مما دفع بكثير من النساء إلى حرية ضارة ممقوتة منحرفة عن الفضيلة كل انحراف .. وأزف وقت انصراف الشيخ فتأجل البحث في السؤال وفي الإجابة عليه إلى يوم قادم .

***

المجلس الرابع عشر :

واجتمع الشيخ إلى مريديه في الليلة التالية .. واصل حديثه الشائق عن وضع المرأة في كافة أنحاء العالم وفي جميع العصور .

قال : لقد أخبرني من أثق بخبره أنه شاهد بعيني رأسه عدداً كبيراً من النساء وهن يزاولن أحط الأعمال وأشقها ويتصببن عرقًا ويبدو عليهن الكلال والإعياء .. شاهد هذا في الشرق وفي الغرب على السواء ، شاهدهن زبالات وكناسات ومنظفات مراحيض ومجاري في داخل الأرض .. وكان منظرهن يغثي النفس ويحملها على الإشفاق على زهرات غضة في ربيع العمر ومنتصفه وهن يكابدن في سبيل لقمة العيش ويلاقين في سبيل ذلك نصبًا كبيراً وقد ذبلت وجوههن وفارقتها الأنوثة والخفر .. وكان الرجال يمرون بهن ولا يجدون حرجًا وولا غضاضة من منظرهن المؤذي هذا .. فهل هذه هي الحرية التي ينشدها النساء ؟! أم هي حرية التبذل والتبرج والتعرض لأنظار الرجال

بمظاهر لا تمت إلى الحياة بصلة .. وتدعو جهرة إلى الفسوق والدعارة ؟!

الحق أن الإسلام قد أعطى المرأة حريتها في حدود معقولة وعادلة . وصان لها كرامتها وأنوثتها وطهرها ، وساعدها على العيش براحة بال واطمئنان . فهي سيدة المنزل وربة البيت وأم الأطفال .. وهي المدرسة الأولى لهم في الحياة .. ومن حقها أن تأخذ نصيبًا من التعليم فذلك أدعى إلى أن يكون أمًا صالحة وربة منزل ممتازة ، يعيش في ظلالها الزوج والولد في اغتباط وراحة .. ولقد أسلفت القول .. أن للمرأة أن تتزيد في التعليم متى ظهرت لها مواهب تدعو إلى هذا التزيد لتكون الفائدة منها لمنزلها وزوجها وولدها .. وللمجتمع أيضًا .. على أن المرأة بطبيعتها الأنثوية التي فطرها الله عليها لن تستغني بحال من الأحوال ولو أنها أوتيت كل كنوز الأرض أو كل أمجادها وشهرتها .. لن تستغني بحال عن الزوج والولد ففيهما تكمن سعادتها النفسية الحقة .. وكثير من النساء اللواتي فاتهن قطار

الزوجية ، بعد أن أثرن العلم عليها .. كثير منهن قد ندمن على هذا أشد ندم .. وعرفن أن كل ما أوتوه من علم وبعد صيت لم يغنياهن شيئًا .. ولم يعطياهن العوض عن الحياة الزوجية الممتعة .. وتثاءب الشيخ ثم قال لمريديه .. أرى أن للحديث بقية سنكملها إن شاءالله من غدنا المقبل .. وانفرط عقد الجماعة إلى لقاء جديد من يومهم التالي لمن قدر له أن يعيش .

***

المجلس الخامس عشر :

وفي الليلة الثانية اجتمع الشيخ بمريديه كعادتهم في ليالي شهر رمضان ، وتحدث وهو ينظر إليهم بحنان وقال : سنحاول الليلة أن نلم إلمامة عجلى بموقف الإسلام من المرأة .

فلقد كانت المرأة في الجاهلية مضطهدة أشد اضطهاد ، وكان بعض العرب يئدون بناتهم كراهية فيهم ، يقول الله جل جلاله في محكم كتابه « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به .. أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يزرون » فلما جاء الإسلام رفع من قدرها وساواها بالرجل في كثير من حالاتها .. ولما كان بارىء الخلق يعرف خلقه أكثر مما نعرف بما لا يقاس ويعرف أن الرجل بحكم تركيبه الجثماني والفكري أقوى من المرأة فقد جعله قواما عليها « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض » ولكنه أوصى خيراً ، كما أوصى رسوله الكريم بهن في أحاديث لا حصر لها ، فقال « رفقًا

بالقوارير » ، ولم تأته امرأة متظلمة من رجلها إلا أعطاها حقها الأوفى منه ونصحه بحسن معاملة امرأته .. ولقد نبغ في صدر الإسلام نساء كثيرات كخديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبي بكر الصديق ، وفاطمة الزهراء .. وسكينة بنت الحسين بن علي ، وعائشة بنت طلحة وصفية بنت عبد المطلب .. وقاتل بعضهن قتالاً مشرفًا بين يدي رسول الله ففقن بذلك الكثير من الرجال المتقاعدين عن الجهاد .. وما حديث نسيبة المازني بمجهول ولا منكور فلقد قاتلت مع رسول الله يوم أحد قتالاً أوجب لها ثناء الرسول وحسن دعائه ، كما قاتلت المرتدين تحت راية خالد بن الوليد سيف الله حتى جرحت جراحات كثيرة وقطعت ذراعها وهي تجاهد .. كذلك هي الخنساء فلقد بكت أخاها صخراً بما لم يبك مثله ثاكل من الرجال أو النساء .. فلما استشهد أولادها في الإسلام لم تذرف دمعة واحة وإنما احتسبتهم في سبيل الله شهداء أبراراً . وحمدت الله وأثنت عليه مصطبرة راضية .. وتاريخ الإسلام حافل بنوابغ النساء فلقد كان منهن الكثيرات

في العهدين الأموي والعباسي وفيما تلاهما من عهود ولو لم يكرم الإسلام النساء لما نبغن وجئن بما يشبه المعجزات من جلائل الأعمال .

فهل بعد هذا يأتينا مستشرق حقود أو مضلل أو مسخر أو جاهل ليدس للإسلام ويرميه بأشنع التهم وهو منها براء ؟! اللهم إنا نسألك الهداية والتوفيق فيما يقولون عن الإسلام إلا زوراً وبهتانًا فهو نصير المرأة وحاميها من التبذل الذي يلاشي أنوثتها ويعطل رسالتها في الحياة ..

وتهيأ الشيخ للقيام بعد أن أزف وقته ، فقام مودعا من جميع مريديه بكل تجلة وحب وتقدير .

***

المجلس السادس عشر :

واستوى الشيخ في مجلسه كعادته في وقته المحدد فلقد كان حريصًا كل الحرص على الدقة في المواعيد فإذا صرفه ظرف قاهر عن حضور مجلسه بادر إلى إخبار مريديه بتخلفه مع تبيان أسباب التخلف .. ولقد قال لهم ذات مرة : إن صدق الوعد من أكرم الخلال للناس فإذا وعدت أنا بذلت كل جهدي لوفائي بالوعد ، كذلك أنا إذا وعدت فإنني أرتقب ممن وعدني أن يفي بوعده في وقته المحدد لئلا يضيع أوقاتي سدى بطول الانتظار.. واستشهد الشيخ مرة بقوله عز وجل « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً ونبيا » فلفت أنظار مريديه إلى الدقة والبراعة المعجزتين في الآية الكريمة .. وقال لهم إنه سبحانه قدم صدق الوعد على الرسالة والنبوة لما له من قدر عظيم عنده سبحانه ، كما أستشهد بكثير من أشعار العرب وكلامهم عن صدق الوعد مما يدل على أن هذه الخلة كانت ذات مكانة مرموقة عند العرب منذ جاهليتهم فلما أشرق نور الإسلام

فيها وجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معززة لإجلالهم هذه المزية ازدادوا تمسكًا بها وحرصاً عليها . هكذا كان أسلافنا الكرام ، فما الذي صار حتى أصبحنا لا نحفل بهذه المزية التي كدنا أن نتفرد بها منذ القدم جاهلية وإسلامًا ؟! لقد أصبحنا لا نعبأ بها إلا قليلا ، وأصبحنا نزجي الوعود جزافًا ولا نتقيد بها.. فكيف نلوم من يخلف وعده أو يرجئه كثيراً بحيث يؤذي صاحبه ويبدد أوقاته الثمينة .. ونحن لا نلتزم بهذه المواعيد صدقًا ولا دقة ؟!

وأعجب ما في الأمر أن بعضنا أصبح يشيد بدقة الفرنجة في وعودهم ويضرب بها الأمثال فيقول مثلاً .. هذا وعد إنكليزي ؟! هذا والله هو العجب العجاب .. إن الفرنجة قد أخذوا عنا هذه الصفة المختارة ، فكيف ننسبها لهم ؟! إن من يحترم وعده يحترم بذلك دينه وتقاليده ورجولته بل أقول إنسانيته لأن الوفاء بالوعد مما يشترك فيه الرجال والنساء على السواء ، ذلك لأن الإسلام لم يفرق قط بين الرجل والمرأة في

الخلال الطيبة .. بل إن التفريق بينهما في بعض نواحي الحياة جاء لمصلحة المرأة أكثر منه لمصلحة الرجل ، فمن أتى بهذا التفريق هو الخالق البارىء .. العليم الحكيم .. الذي يجب علينا وجوبًا قاطعًا الإذعان لأوامره وأحكامه واعتبارهما أوامر وأحكامًا لمصالحنا رجالاً ونساء .. فلئن اشتكى بعض النساء أو بعض من يزعمون أنهم أنصار المرأة وحماتها من الاضطهاد .. لئن زعمن أو زعموا ذلك فإنهم يفترون على الله وعلى أنفسهم الكذب وهم يعلمون .

ولقد دعى تدهور مركز المرأة في الغرب والشرق .. ربما كثيراً من الفلاسفة والمفكرين هناك إلى ضرورة إنقاذها من الوهدة التي تردت إليها .. ولن ينقذها منها إلا اتباع تعاليم الأسلام وأحكامه لها .

***

المجلس ا لسابع عشر :

أخذ الشيخ مجلسه متثاقلاً تبدو على وجهه الصبيح الوقور مسحة من ألم وحزن تنبه لها مريدوه فأجفلوا وعرفوا أن شيخهم يعاني من أمر عظيم يقلقه ويقض مضجعه . فلقد كانت عادته معهم أن يكون طلق المحيا ، باسم الثغر متهللاً بشراً وتفاؤلاً بالحياة . وتهيبوا أن يسألوه عن سبب ألمه وحزنه .. لكن تلميذه الأثير لديه بمثابرته واجتهاده وألمعيته تجاسر فسأل الشيخ عما يعاني .. قال له : إننا لنرى من يومنا هذا على وجه شيخنا جهامة وقطوبا لم نعهدهما به من ذي قبل .. فما بال شيخنا حفظه الله ووقاه شرور الحياة ومآسيها ..

قال الشيخ ـ وهو يحاول أن يجلو عن محياه هذا الشجن الطارىء ما استطاع إلى ذلك من سبيل ـ : فإني يا بني لكما تقول فلقد استطعت أن أكبح من ألمي وحزني حينًا من الدهر حتى غلباني على أمري منذ ليلتي البارحة ..

إن الأتون الملتهب الذي يعيش فيه البلد العربي ذو

الأكثرية الإسلامية لبنان الحبيب قد طال أمد اشتعاله .. وكلما اقتربت بشائر السلام فيه .. سبقتها نذر الحرب الكريهة التي حصدت عشرات الألوف من اللبنانيين ، وأوشكت أن تنقض بنيان اقتصاده من أساسه .. لقد كان لبنان هو المنتجع العربي الفريد الذي يهرع إليه معظم أبناء العروبة في فصل الصيف القائظ . فيجدون به المناخ الحلو .. والخضرة السندسية ذات الزهر والثمر .. والجداول والغدران .. والجبل والبحر .. كلاهما رائع الجمال .. كثير الانعاش .. ومنذ أن شبت به الحرب التي أعيت المفكرين معرفتة أسبابها الجوهرية .. فاختلفوا فيها أختلافًا كبيراً ..

سأترك ـ يا بني ـ كل الأسباب التي برر بها الناس هاته الحرب الضروس ، وسأتجاوزها بعد أن أعيتني الحيلة في ترجيح أيها .. وكل ما أستطيع أن أقوله الساعة عنها أن أسبابها خارجية أكثر منها داخلية .. وأن هناك من يهمه أن يؤجج هذه النار كلما خبا أوارها . فنحن نسمع في كل حين من معظم قادة

لبنان مسلمين ومسيحيين .. إن لم نقل منهم جميعًا .. نسمع منهم أن هذه الحرب التي أتت على الأخضر واليابس كما يقولون ليست معقولة ولا طبيعية .. ويقولون إنهم جميعًا يرفضون تقسيم لبنان لأن التقسيم في غير مصلحته .. والعالم اليوم يتجه إلى الوحدة والاتحاد والتكتل لا إلى الانفصام والتقسيم .. والعرب في كل مكان وأكثريتهم الساحقة مسلمة .. العرب كلهم يتجهون إلى لبنان ويؤازرونه ويدعمون قضاياه في الداخل والخارج . وهذا فإن كبار عقلاء المسيحيين بما فيهم الساسة ينكرون فكرة التقسيم أشد إنكاراً ولا يتقبلونها بحال لأنها في غير مصلحة المسيحيين اللبنانيين وبوجه خاص الموارنة ..

ونظرالشيخ إلى ساعته فعرف أن الوقت المحدد للجلسة قد انتهى فقام من مجلسه مودعًا بالحفاوة والإكبار من كل مريديه ليتمم حديثه عن لبنان الشقيق في جلسته التالية من يوم غد إن شاء الله .

***

المجلس الثامن عشر :

واجتمع الشيخ بمريديه في الليلة التالية وما يزال بوجهه أثر من حديث الليلة البارحة .. والحديث كما يقولون شجون .. وكان المريدون يتطلعون إليه يبتغون منه استئناف حديثه عن لبنان فلقد أحدث في نفوسهم ذلك الحديث انطباعًا صادقًا عن لبنان وما يجري فيه من أحداث دامية لها أول وليس يعلم نهايتها إلا الله .

قال الشيخ فإن حديثي إليكم عن لبنان قد نبش في صدري جراحًا عميقة كنت أغطيها بطبقة صفيقة من التجلد والاصطبار .. فأما وقد اضطررت أن أتحدث عنها فإن الجراح قد نكأت وتفجرت في صدري دمًا عبيطًا . غير أني أرى في هذا الحديث على مرارته شيئا من المشاركة الوجدانية .. وكما يقول الشاعر العربي القديم :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع !

فالمكاشفة مع ذوي الميول المتقاربة تريح النفس والأعصاب .. مثلها كمثل الدمع سواء بسواء .. وإذا كان الأطباء قد اكتشفوا حديثًا أن الدموع يخفف من المصاب فظنه الناس كشفًا علميًا جديداً لحضارة الغرب فإن الواقع هو غير هذا فإن العرب قد عرفوا منذ زمن طويل فائدة جريان الدموع وخطر انحباسها فقال شاعرهم :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة

من الوجد أو يشفي شجى البلابل !

والرجل الكريم يرى أن من الرجولة ومن الكرامة أن لا يرى الناس دموعه وهي تنساب فهذا الانسياب البادي للعيوب .. إنما هو للمرأة لا للرجل . وهي ترى ـ عدا عن هذا ـ إن الدموع من أسلحتها الماضية .. فهي تشهرها في وجه الرجل فما يطبق إلا الاستجابة لما تريد .. ولقد بكيت يا أبنائي .. وقد لفني الليل بردائه .. ودوني دون الناس باب قد أحكمت رتاجه فلن يستطيع أحد أن يتسلل إليه فيكتشف ما أنا فيه من هم وتباريح .. فإذا

استطاع المرء أن يخفف من لواعجه بالبكاء المستور .. وإذا هو استطاع إلى جانب هذا .. أن يتحدث إلى نفر من ذوي النفوس الحساسة والطباع المرهفة بما يعانيه فإنه سيجد لذلك برداً وطمأنينة ولا ريب .. إلا ترونني الليلة وأنا أحسن حالاً من ليلة الأمس ؟!

وبعد فإن أحداث لبنان التي طال عليها الأمد مما يثير الألم كما يثير التساؤل ممن يحبون هذا البلد الطيب .. فليس من الطبيعي أن تطول المعركة كل هذا الزمن لولا وجود دوافع لها تؤرث من نيرانها كلما كادت أن تخبو .. وتترمد .. ومعظم هذه الدوافع هي من خارج لبنان لا من داخلها .. من أولئك الذين يستفيدون من تمزق لبنان وتقسيمه إلى دويلات جدّ صغيرة .. فمن هم هؤلاء ؟! هذا ما سنعرض له إن شاء الله في حديثنا المقبل ..

***

المجلس التاسع عشر :

وهي الليلة الثانية تحدث الشيخ إلى مريديه فقال : إن أكبر مستفيد من تمزق لبنان بعد الحروب الأهلية التي أنهكته وأطاحت باقتصاده هي إسرائيل هذا الجسم الغريب الدخيل على دنيا العروبة والإسلام .. ثم الدول الاستعمارية والشيوعية التي تساعد إسرائيل بكل قواها ، فما إسرائيل إلا الحربة التي غرسوها في جسم العروبة عن عمد وسابق تدبير لتكون يدهم التي يبطشون بها ، وتفتح أمام منتجاتهم الأسواق العربية الكبرى والضعيفة في ذات الوقت . فهي رغم اتساعها وعظيم استهلاكها ، إلا أنها لا تستطيع وهي ضعيفة مستباحة .. أن تنظم اقتصادها وأن تحميه من ترفع السلع الغربية والشرقية إليها بالإضافة إلى سلع إسرائيل الدخيلة .. إنهم جميعًا يعرفون أن العرب .. وقد كادوا أن يصبحوا القوة العالمية الثالثة على ظهر هذا الكوكب الأرضي لولا تطاحنهم وتمزقهم كل ممزق .. قد كاد عددهم أن يصل إلى مائة وخمسين مليونًا .. وقد تفشى

فيهم التعليم مما يبشر بظهور جيل جديد مثقف متنور يمكن للعروبة في الأرض بإمكاناته ومواقعه الاستراتيجية وباتساع أراضيه وخصوبتها وكثرة مياهها ، وبما تحتويه من خيرات وفيرة مذهلة لا يستغني عنها العالم في حاضره .. وتشتد إليها حاجته في مستقبله .

فهم لهذا لا يريدون للعرب أن يكونوا أقوياء لئلا يذودوا عن حماهم بقوة .. وليستطيعوا أن يقفوا مع القوى العالمية الكبرى موقف الندادة لا موقف التابع .. وليتعاملوا معها بالنسبة لخيراتهم معاملة لا ضعف فيها ولا استخذاء ولا سذاجة وغشامة .. فإنهم إن فعلوا هذا منعوا تلك القوى الضارية من الجشع والاستغلال والتحكم وإملاء الشروط .. لكنني أعتقد ـ يا بني ـ أن هذه القوى قد ضلت الطريق السوي وأخطأت في الحكم وجانبها الصواب .. إن العرب لن يستمروا في هذا التفرق والنزاع والتطاحن ، فلا بد من يوم قريب آت لا محالة ، يجمع من شملهم المتبعثر ويجعلهم كالحزمة الواحدة القوية المتماسكة

كما قال الشاعر العربي القديم :

كونوا جميعًا يا بني إذا اعترى

خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا

وإذا افترقن تكسرت أفرادا

إن الدين والدم واللغة والجوار والمصالح المشتركة .. كل هذا يدعوهم إلى التضامن والوفاق لئلا يبتلعهم أعداؤهم واحداً واحداً حين لا يستطيعون ابتلاعهم مجتمعين متحدين .. كتلة واحدة .. ولقد بدأ عقلاؤهم ومفكروهم المخلصون منذ حين من الدهر في تنبيههم إلى الأخطار المحدقة بهم من كل جانب ، وبذلوا مجهوداً جباراً في هذا السبيل الذي خططوا له بإحكام ونذروا أنفسهم لتحقيقه . ولن ينسى العرب والمسلمون في كل بقعة من هذا الكوكب تظلها الشمس .. لن ينسوا الفيصل العظيم الحكيم .. لن ينسوا بذله ومتاعبه وتضحياته في هذا السبيل القويم حتى مضى شهيداً إلى رحاب ربه الكريم .. وكل

ما نراه اليوم من دعوة لتضامن العرب ولاتباع تعاليم الإسلام ورفع رايته هو ثمار لتلك البذور الطيبة التي بذرها الفيصل فبدأت تؤتي ثمارها بإذن ربها .. وقام بعده من خلفه بتأييد الدعوة والجهاد والبذل في سبيلها بكل قوة وعزم وإخلاص .

***

المجلس العشرون :

واكتمل عقد المريدين وفي صدر مجلسهم شيخهم الوقور وكان يهمهم بتسبيح ألهاه قليلاً عن موعد الدرس الشائق .. والتفت إلى مريديه فإذا أبصارهم شاخصة إليه منتظرة .. قال الشيخ : أذكر أنني أتيت في آخر حديث الليلة البارحة على موقف الفيصل ـ يرحمه الله ـ من التضامن العربي والإسلامي ، وبذله في سبيلهما الكثير الطيب من صحته ووقته وفكره ، وماله حتى أصبح مثلاً يحتذي .. وأصبح حديث المجالس العربية والإسلامية كلها على كل صعيد ولدى مختلف الطبقات حتى دعاه الله إلى رحابه شهيداً مرضيا إن شاء الله .. وما يزال ذكره العطر يتردد على كل لسان فلقد أصبح بما فعله للعروبة والإسلام من الخالدين .. فليتغمده الله برحمة منه ورضوان .. وخلفه الملك الصالح خالد يؤازره ولي عهده فهد فسارا على نفس النهج ، ما يخرجون عنه شعرة واحدة .. وأصبحا متممين ما بدأ به الفيصل ، ولئن كانت هذه المملكة العربية الإسلامية الفتية قد اقتعدت

مكانًا عليًا بين كافة دول الأرض بفضل هذه السياسة الرشيدة .. وأمست مثابة لكل الدول العربية والإسلامية .. بل لكل دول الأرض . ففي كل يوم رئيس دولة ، أو رئيس حكومة أو زعيم كبير .. أو وزير مسؤول يزورنا منهم زائر مسترشد أو طالب عون مادي وغير مادي يستعين به على التنمية وعلى الخروج من المآزق المالية .. وعلى غيرهما من كل ما ينفع ويرفع والدولة لا تألوا جهداً في الاستجابة لكل المطالب ما دامت ترى فيها عونًا وفائدة للإسلام والعروبة والبشرية كلها . فهي تنفق قسطًا كبيراً من دخلها العام الكبير في هذا السبيل ولا تمتن ولا تشترط إلا الرشاد والخير .. ونحن نبتهل إلى الله العلي القدير أن يضاعف من توفيقها وأن يسدد خطاها فلا تنحرف عن هذا الطريق القويم .. كما إننا نبتهل إلى سبحانه أن يجعل منها قدوة طيبة للبشرية جمعاء ولا سيما إخواننا في العروبة والإسلام فإنهم لو ساروا مثلها هذا السير الذي لا يبتغي بما يفعله إلا وجه الله .. ثم خير الناس لكان للعروبة والإسلام شأن أي شأن في دنيانا

الحاضرة ولكنها سحابة صيف ما تلبث أن تنقشع إن شاء الله عن سمائنا ويومئذ سيعرف العالم كله من هم العرب .. ومن هم المسلمون ، ويومئذ تزول الحزازات والأحقاد والفرقة عن دنيا العرب .. كما تزول البدع والخرافات والعقائد المستوردة من دنيا الإسلام ويعود صافيًا نقيًا .. قويًا عزيزاً كما بدأ .. ثم صمت الشيخ فجأة وكأنه تذكر شيئًا .. وأطرق برأسه إلى الأرض إطراقة طالت حتى خاف مريدوه عليه وتساءلوا بهمس وصل إلى أذن الشيخ فرفع رأسه إليهم وقد زال ما به من سهوهم ووجوم .. وقال لهم : كدت ألوم نفسي على أني أطلت الحديث عن لبنان ومأساته الدامية .. وانصرفت به عن الإجابة على أسئلتكم كالمعتاد ، إلا أنني عدت فقلت إنني لم أقل إلا خيراً .. ولم أتحدث إلا عن مأساة عربية مسلمة شغلت أفكارنا جميعًا حينًا من الدهر .. ولم يبق للحديث إلا بقية قصيرة موعدنا معها غدنا إن شاء الله .

***

المجلس الحادي والعشرون :

وفي الليلة حينما اكتمل الجميع بادر الشيخ أحد مريديه.. وكان من أصل لبناني فقال لشيخه : لقد تفضلت فوعدتنا ليلة البارحة بكلمة قصيرة عن لبنان الشقيق ونحن جميعًا نتطلع إلى هاته الكلمة باهتمام واشتياق ، ونعرف أن حديثك عن لبنان في ليالينا الأخيرة قد أمتعنا كما أفادنا. ولقد استعضنا به خير عوض عن أسئلتنا وإجاباتك فما تقول لنا إلا ما يمتع ويفيد .. وتبسم الشيخ في وجه مريده وقال له : لست وحدك اللبناني فما دام لبنان قطعة من العروبة .. بل ويكاد يكون أوفرها جمالاً في مناخه ومياهه ورياضه وزهوره وثماره وجداوله وينابيعه وجبله وبحره .. إنه المنتجع الفريد الذي ينتجع إليه أبناء العروبة في فصل الصيف فيجدون به ما تقر به أعينهم وتفرح به قلوبهم وتصح به أجسامهم وتصفو به أفكارهم وترق أحاسيسهم . وقد كان لنا جميعًا خيراً من مصائف الشرق أو الغرب .. ولوددت أن ينصرف العرب ، كل العرب عنهما إليه فيغمرون بذلك اقتصاده

ويمكن أهليه من تطوير وتجميل تلك المصائف الحلوة .. بدلاً من صرف الأموال الطائلة في أوروبا وفي أميركا ، وفي بعض بلاد الشرق الأقصى وأفريقيا صيف كل عام .. ولكن هذه الحرب الضروس التي استمرت أعوامًا طوالاً فأهدرت ألوف الأرواح ودمرت مئات المرابع قد ملأت قلوب أهله ذعراً وخوفًا واضطرتهم إلى الهجرة منه حفاظًا على أرواحهم والبقية الباقية من أموالهم .. فكيف بقلوب المصطافين من غير أهله ؟! وإننا لنعقد الآمال على هذه المساعي الحميدة التي يبذلها بعض زعماء العررب الكبار وفي مقدمتهم زعماء هذا البلد الأقدس معقل العروبة والإسلام .. حتى إذا انكشفت هذه الغمة وانزاح هذا الكابوس عن صدر لبنان .. عاد إليه عاشقوه من العرب المصطافين وغير المصطافين .. وعسى أن يكون هذا قريبًا بإذن الله .. أقول ما دام لبنان قطعة من العروبة فنحن جميعًا لبنانيون مثلك سواء بسواء .. ليس هناك يا بني فرق بين بلد عربي وبلد آخر مثله .. كلهم عرب .. وعلى أكتاف العرب بعد رسالة محمد التي شرف

الله العرب بها وميزهم على سواهم من الأمم حتى لقد قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « أنا خيار من خيار » وما بعد هذا من شرف للعرب الأخيار .. أقول على أكتاف العرب الصناديد قامت الرسالة المحمدية وانتشرت في كل بقاع الأرض ورفرفت رايتها فوق كل مكان منه حينما كان الغرب سيد حضارة اليوم يعمه في الظلام .. ثم يعود بفضل الحضارة الإسلامية إلى النور قليلاً قليلاً بعد أن اقتبس من الإسلام خير ما فيه وكله خير .. فالعرب هم حماة الإسلام في البدء والمنتهى . منهم الرسول الأعظم .. وفي بلدهم بيت الله العريق وكعبته المشرفة .. وفيها دار الهجرة التي خرجت منها جحافل الإسلام فأطاحت بأعظم إمبراطوريتين في تلك العصور وأنقذت شعوبهما من الظلم والاستبداد فدخل الناس في دين الله أفواجا .. ومن لم يدخل منهم في حظيرة الإسلام عاش معززاً غير مضطهد .. واكتفى الإسلام منه بقليل من المال كجزية لا تكاد تكفي بعض ما ينعم به من أمن ورخاء في ظلال الإسلام .. ألم يقل غوستاف

لوبول : ما عـرف العالم فاتحًا أرحم من العرب وكان فيـما قال صادقًا كل الصدق .. منصفًا كل الإنصاف ؟!

وبعد فسامحك الله يا بني لقد استدرجتني في الحديث عن لبنان الحبيب استدراجًا صرفني عن الكلمة القصيـرة التي أود أن أختتمها حديثي عـن مأساة لبنان العربي .. ولقد أعجلني الوقت عن الوفاء .. فإلى الغد أن شاء الله .

***

المجلس الثاني والعشرون :

وحينما جلس الشيخ إلى مجلسه في ليلته التالية .. سارع إلى الحديث خشية أن يمضي الوقت دون أن يأتي على كلمته القصيرة التي يود أن يختتم بها حديثه عن مأساة لبنان ..

قال : إن العجيب في أمر الحرب الأهلية بلبنان والتي استمرت أعوامًا طوالاً أنه لا تبدو في أفقها بوادر انطفائها .. ولقد ذهب الناس في تعليل هذه الظاهرة العجيبة في هذه الحرب العوان مذاهب شتى .. فقال بعضهم : إن السبب هو الطائفية المستحكمة في لبنان بين المسلمين والمسيحيين وبصورة خاصة الموارنة منهم .. وما أرى أن هذا السبب هو الذي يؤجج نيران هذه الحرب كلما قاربت أن تخمد .. فلماذا تستفحل هذه الطائفية في هذه الأيام وحدها وقد عاش المسلمون والمسيحيون أمداً طويلاً في وئام إن لم يكن كاملاً فإنه على كل حال لم يصل بالطائفتين إلى حافة الهاوية ! وما الذي تريده هذه الطائفية بموطنها الغالي ؟! أتريد التقسيم وهو بلد صغير لا يحتمل

التقسيم الذي يضره أكثر مما ينفعه إن كان له نفع؟! أيريدون أن يكون للمسلمين وطن في لبنان بعد التقسيم.. وللمارونيين وطن؟! والمارونيون.. وزعماؤهم على الأخص يعرفون مدى المساعدات الكبرى التي تتدفق على لبنان من شقيقاته العربيات.. ويعرفون أنهم إذا انفصلوا عن المسلمين بكيان خاص بهم فإن هذا الكيان سيحرم من هذه المساعدات المتنوعة على كل صعيد؟! وسيكون كياناً هزيلاً لا يقوى على الثبات في وجه المطامع والخصوم. كما يعرفون أن العالم بكل شعوبه وأممه يتجه إلى الاتحاد لا إلى الانفصال لأن الاتحاد قوة، والانفصال ضعف. نحن لا نظن أن الطائفية هي السبب وإن كانت من أسباب ضعف لبنان واهتزازاته الدائمة.. ذلك لأن كثيراً من زعماء المارونية لهم صلات وثيقة بالزعماء المسلمين.. وهم على وفاق معهم على أن مصلحة لبنان في الوحدة ما بين الطائفتين لا في الانفصال.. وكثيراً ما سمعنا العميد الماروني ريمون إده يجاهر بهذا في كل مكان وبكل مناسبة.. كما أن موقف الزعيم الماروني الرئيس سليمان فرنجية واضح لا غموض فيه.. فلئن شايع

هذا الزعيم .. الكتائبيين والشمعونيين فترة طويلة لأسباب يضيق المجال عن سردها ، فإنه طالما أعلن بصراحة أنه ضد التقسيم .. وموقفه اليوم من الوضوح والجلاء ولا سيما بعد مذبحة اهدن التي راح ضحيتها ابنه الأكبر وزوجته وحفيدته وسائق السيارة والمربية مع عدد كبير من أنصاره على أيدي الكتائبيين قد أوضح له بما لا يقبل الشك أن الكتائب وحلفاءها هم طغمة من السفاحين لا يتورعون عن ارتكاب أبشع الجرائم في سبيل مآربهم الشخصية ومطامعهم الآثمة .. وحتى الجميل وشمعون فإنهم لا يستطيعون أن يجاهروا بالرغبة في التقسيم لأنهم يعرفون أنه رأي لا يناصرهم أحد عليه حتى من الطائفة المارونية ، ولكنهم يبطنون غير ما يتظاهرون به والله غالب على أمره ولن يهمل هذه العصابة بعدما ارتكبت كل هذه الموبقات وجرت لبنان إلى حافة الهاوية السحيقة التي لا قرار لها .. وتنهد الشيخ من أعماق وجدانه .. ثم قال لمريديه .. إنها الصهيونية .. وإنها إسرائيل .. هما المحركان لكل هذه الفتن

التي ملأت جسم لبنان بالجراح ..إنهما هما المستفيدان الأكبران من فرية التقسيم فإنه يتيح لإسرائيل أن تبسط نفوذها على هذه الدويلات الصغيرة .. بطريق عملائها من كتائبيين وشمعونيين .. ثم تثب من أرض لبنان إلى أراض عربية أخرى .. ولكن العرب لن يتيحوا لها هذه الفرصة التي تلحق بهم وبقضيتهم الكبرى كلها أبلغ الضرر .. وسيكون الله معهم لأن الحق معهم ولأن عدالة قضيتهم ظاهرة الوضوح ، وما عليهم إلا أن يتحدوا ويتضامنوا في وجه هذا الخطر الجسيم حتى يظفروا بالنصر .. وفي النصر عزتهم وكرامتهم ومجدهم وأمنهم وسعادتهم ورخاؤهم وسلامهم .

***

المجلس الثالث والعشرون :

بدا الشيخ لمريديه في الليلة التالية .. وبعد أن قفل حديثه عن مأساة لبنان .. بدا لهم كناقة أبل من مرض طويل . ففي وجهه نحول وشحوب ، وفي عينيه حزن كظيم ، وفي ألفاظه ارتعاشات مرارة نفسية قاسية .. وفي مشيته تثاقل وضعف .. فأشفقوا عليه إشفاقًا شديداً فهو يحتل من نفوسهم محلاً رفيعًا لا يطاول .. بيد أنهم لم يفاتحوه بكلمة واحدة عما أبصروه منه .. فلقد عرفوا السبب ، أن في حديثه المتواصل عن مأساة لبنان كما أسماها قد نبش في صدره جراحًا داميات .. فالشيخ من العقيدة الدينية في القمة ، ومن قوميته العربية في الذروة ، ولبنان بلد عربي وبلد إسلامي بالعدد الكبير الذي ينتمي إليه من المسلمين .

فالكوارث التي حاقت به سنين عددا ، قد أهاجت بلابله وأقضت من مضجعه فلن يقر له قرار حتى يعود السلام إلى ربوع لبنان النضرة .. ويعيش المسلمون والمسيحيون فيه على صفاء

وحب وتفاهم كما كانوا عليه من ذي قبل .. وأن يعرفوا عدوهم اللدود الذي يتربص بهم الدوائر ولا يستريح له بال حتى يراهم في أسوأ حال لكي يستغل هو هذا الضعف والتمزق لصالحه وحده .

على الإخوة اللبنانيين أن يعرفوا ما يحاك لهم وراء الستار ويدبر لهم خلف الكواليس .. لكي يتجنبوه .. يتفادوه وينقلبوا ببكرة أبيهم عليه ليردوا كيده في نحره . وليقولوا له بصراحة لقد عرفناك أيها الغراب المشؤوم فاذهب عن هذه المرابع وإلا ناصبناك الحرب حتى ينصرنا الله عليك . فعلى الباغي تدور الدوائر .. فهل يقدر للشيخ فيما بقي له من عمر وهو يراه أقل من القليل .. هل يقدر له أن يرى هذا اليوم الذي يتمناه ليرقد في مضجعه الأخير وهو هانيء البال مستريح الضمير .. أما المريدون فإنهم يضرعون إلى الله في السر والعلن أن يوافي شيخهم هذا اليوم المرتقب .. كما يضرعون إليه سبحانه أن يمد في عمر الشيخ طويلاً فإنهم لا يتصورون العيش بدونه فهو

واحتهم الظليلة في قفر الحياة .. وهو المنهل العذب الذي منه ينهلون كلما أظمأتهم الحياة وما أكثر ما تظمىء ..

وابتسم المريد ذو الأصل اللبناني في وجه شيخه وقال له : فإني أيها الشيخ لأشعر شعوراً خفيًا بأن مأساة لبنان ستنتهي إلى أمن شامل ورخاء وبلهنية عيش .. وستنتهي إلى وفاق بين كافة العناصر اللبنانية بعد أن صهرتهم هذه المحنة الفاشية في بوتقتها وصاغت منهم جميعًا جسمًا واحداً قويًا مترابطًا .. ولقد تكون المحن ـ يا شيخي ـ كما علمتنا ذوات فوائد جمة على من نزلت بهم .. وإني لأتحسس آثار هذا الوفاق منذ اليوم بل وأتنسمه وأفعم صدري بعبيره .. ولقد سمعت من كثيرين من إخواني اللبنانيين الذين جاءوا من لبنان فأسعدتني الفرصة بلقائهم .. سمعت منهم ما يدل على صحة هذه التباشير ، وما يثبت أن اللبنانيين بكافة طوائفهم قد سئموا هذا النزاع الطويل الذي كاد يفضي ببلدهم الجميل إلى التبار .. وحنوا على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم إلى عودة السلام والتضامن والإخاء .. وأن

بعض زعمائهم المتعصبين سينزلون طوعًا أو كرهًا إلى ما يشتهيه سواد الأمة . وما أراهم اليوم إلا كما قال شاعرنا العربي القديم :

إذا اشتبكت يومًا فسالت دماؤها

تذكرت القربى ففاضت دموعها

فليطمئن بال شيخي وليفرح روعه فما ذلك اليوم ببعيد إن شاء الله .

وتهللت أسارير الشيخ بما سمع من بشرى ، غير أن أحد المريدين الخبثاء قال لزميله هذا .. فأنا قد سررنا كشيخنا الجليل بهذا النبأ العظيم ، وإن كنت قد أسهبت في القول حتى أضعت علينا درسنا اليوم .. وما لبث الشيخ أن قام من مقامه بعد أن وعد مريديه أن يعوضهم عما فات عليهم اليوم في يومهم الآتي .. وانفرط عقد الجماعة وهم يداعبون بعضهم بعضًا مسرورين بنبأ زميلهم .. مغتبطين بوعد شيخهم .

***

المجلس الرابع والعشرون :

وحينما جلس الشيخ إلى مجلسه في ليلته التالية..تقدم إليه أحد المريدين بسؤال عن أثر الوراثة والبيئة في مخلوقات الله..وأيهما أقوى تأثيراً وأشد تغلغلاً في النفوس ؟! قال الشيخ : فإنه لسؤال هام يستحق الوقوف عنده والتفكير فيه قبل الإجابة عليه .. ولعلك ـ يا بني ـ تشير إلى الحديث الشريف الذي يقول بأن « كل امرىء يولد على الفطرة وأبواه ينصرانه أويهودانه أو يمجسانه » ، أو كما قال الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .. فهذا الحديث دليل على أن فعل البيئة في المخلوقات العاقلة أشد وأقوى من فعل الوراثة وإن كان لا يدل على عدم تأثير الوراثة بالمرة .. وهناك الآية الكريمة عن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام فأنكر عليه موسى نبي الله ورسوله هذا العمل فأخبره الخضر في نهاية المطاف أن الغلام فاسد العقيدة والخلق .. وأن له أبوين مؤمنين لو تسلط عليهما لأرهقهما طغيانًا وكفراً ، ثم قال له : « وما فعلته عن أمري »

يعني أنه مـأمـور من الله ذي الجـلال بما فـعل . فـهـذا ابن أبـوين مؤمنين قد تحدر منهما غلام كافر .كذلك هو ولد نوح عليه السلام ، فإن الله يقول له لما ستشفع فيه وقال لربه إنه من أهلي . قال له سبحانه :« إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » كل هذا يدل دلالة قاطعة على أن أثر البيئة أقوى من أثر الوراثة .

والأطباء لا ينكرون هذا بل يعترفون له كنتيجة لأبحاثهم الطويلة في السلالات والأجناس . وكل ما نخلص إليه من هذا أن كليهما .. الوراثة والبيئة مؤثر ولكن تأثير البيئة أقوى ولا ريب .. ويظهر أن أثر الوراثة في السلالات هي أقوى ما تكون في الملامح الجسدية فكثيراً ما نرى فتى أو فتاة ما نملك برؤيتهما إلا نسبتهما إلى أحد أبويهما ممن نعرف .. على أنني بعد التفكير الطويل في هذه المسألة اهتديت إلى نظرية لعلها أن يكون لها من الصواب نصيب .. هي أن الحكمة الإلهية التي تجعل إلى جانب كل حرمان منحًا .. تلك الحكمة التي ميزت الإنسان على سائر المخلوقات الأرضية بالعقل والإرادة قد خففت كثيراً من تأثير

الوراثة في الآدميين لتفسح المجال لخصائص هاتين المزيتين . من أجل ذلك كان تأثير البيئة شديداً في الإنسان بطبعه وعقله وإرادته وبامتزاج كل ذلك بالاختلاط حسنًا وقبحًا .

أما الحيوانات فإن أثر الوراثة فيها هو الأقوى فالذئب لن يمتنع عن الافتراس لأنه من صلب ذئب وهكذا ينجر القياس على كل الحيوانات مفترسة وغير مفترسة .. كذلك هو الحال في النباتات فإن بذرة البرتقال مثلاً لا تنتج تفاحًا وهكذا يمكن القول على وجه التعميم والقطع في كل ألوان النباتات .. ولست أدري .. أصواب هو هذا التفكير أم خطأ ؟! ولعل فيكم من يفكر فيه فيعمل التفكير ليهتدي إلى الحق الذي لا يجادل .. وتأهب الشيخ للقيام بعد أن رمى السائل بنظرة جانبية وكأنه يقول له : أنت أجدر منهم جميعًا بأعمال الفكر حتى نصل سوية إلى الحقيقة التي ننشدها .. وحنى المريد رأسه أمام نظرة شيخه وكأنه يقول له :« وأين الثرى من الثريا يا سيدي العزيز »

***

المجلس الخامس والعشرون :

وفي الليلة التالية كان السؤال من أحد المريدين عن المرح والحزن وتغلب أولهما على بعض النفوس وتغلب الثاني على بعضها الآخر .. ما سبب ذلك ؟ ما سره الأزلي منذ بدء الخليقة حتى اليوم ؟!

وسكت الشيخ قليلاً وكأنه يتأمل ويفكر قبل أن يتكلم .. ثم تدفق بحديث طويل ممتع شائق .. قال يا بني : لقد خلق الله الناس أطواراً كما قال في محكم كتابه ، فمنهم من يغلب عليه المرح ومنهم من يغلب عليه الحزن ، ونرجع إلى حديث ليلتنا البارحة فإنني لأشعر أن ثمة علاقة وثيقة بينه وبين حديث الليلة، فلعل للوراثة علاقة وثيقة بالمرح والحزن كما للبيئة .. فالطفل الذي ينحدر من أبوين مرحين وينشأ ويترعرع في هذا الجو ببيته ـ وهو البيئة الأولى لكل إنسان ـ فإنه لا ريب سيشب مرحًا سواء أكان في بيت غني أو بيت فقير فالمرح في أغلب حالاته لا يرتبط كثيراً بالغنى والفقر فكم من غني مكتئب .. ومن فقير مرح ..

كذلك هو الطفل الذي يشب ويتربى في بيت حزين .. فالطفولة عادة تتلقف ما تشاهد وما تسمع وتتكيف مع ما تتلقف أكثر من الشباب والكهولة .. كذلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .. وهذه القاعدة لها شواذ ككل القواعد .. فلقد يلد المرحان حزيناً بطبعه كما قد يلد الحزينان مرحًا .. على إن تجاربي الطويلة في الحياة هذه قد دلتني على أن أسباب الحزن في هذه الحياة أكبر بكثير من أسباب المرح . فإننا لنسمع ونشاهد أمام كل نبأ وكل منظر سار ، عشرات من الأنباء والمشاهد المحزنة المؤلمة .. نسمع ونرى هذا في الأفراد كما نسمعه ونراه في الجماعات وفي الأمم والدول .. ولعل أطماع البشر وتنافسهم وتحاسدهم هو السبب في هذه الظاهرة .. وإذا نحن تتبعنا أخبار سلفنا الصالح الذي كان ينظر إلى هذه الدار كجسر ننتقل منه إلى دار البقاء .. وإذا نحن عرفنا أن الأعمال الصالحة تتعب وتجهد كما أن طريقها ليس ممهداً وأن الأعمال السيئة غير متعبة ولا مجهدة .. وإذا أمعنّا في الحديث النبوي الشريف .. حفت

الجنة بالمكاره .. وحفت النار بالشهوات .. والحديث الآخر الذي يقول : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .. والثالث الذي يقول : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .. إذا نحن أمعنّا في كل هذا فإننا سنعرف السبب في تغلب الحزن على المرح في حياتنا هذه .. والحق إن الطبع المرح والطبع الحزين كلاهما لا يستطيع أن ينفك من ربقته لأن الطبع لا يمكن لصاحبه أن يتخلص منه وإن أحس منه بوطأة الألم والشقوة .

وأمامنا دليل آخر على غلبة الحزن على المرح ولا سيما في أفذاذ الرجال والنساء منذ أن فطر الله الناس . فالكثرة الكاثرة من الفلاسفة والمفكرين والشعراء والفنانين يغلب عليها الحزن وهو وليد التفكير والتأمل الطويلين ، وهذا لا يمنع أن قلة منهم ذات طباع مرحة وإن بانت تتكلف المرح تكلفًا للتغلب على بأسائها .. كما إن الكثرة الكاثرة من اللاهين المرحين هم من سواد الناس الذين لا يتميزون بتبريز وتفوق .. وهي أيضًا كثرة لا تسلم من قلة مغايرة .

وبعد فإن البحث في هذه الناحية بحث طويل . وقد نعود له في فترة أخرى بتفصيل وتمحيص أكثر .. على أنه يحسن بنا أن نختتم حديث الليلة بقوله سبحانه على لسان أصحاب الجنة بعد أن أصبحوا من الفائزين .. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن .. يقصدون بما يقولون الحزن في هذه الدار التي تنطوي على الأكدار أكثر مما تنطوي على المباهج .

***

المجلس السادس والعشرون :

حينما أخذ الشيخ مجلسه في الليلة التالية كان أحد مريد
يه في جدل هامس مع من حوله من المريدين .. وكان يبدو على
وجهه عدم الاقتناع بما انتهى إليه الحديث .. ولاحظ الشيخ هذا
منهم فقال لهم : أراكم آخذين بأطراف حديث لم تصلوا فيه إلى
قناعة فهل لي أن أعرف ما هو ؟! قال له المريد الذي بدأ البحث
مع لداته : فإننا أيها الشيخ الجليل نتحدث عن المديح والهجاء
في الشعر العربي وقد اختلفنا في اتجاهاتنا حولهما اختلافاً
كبيراً .. أو على وجه الدقة قد اختلفت أنا مع رفاقي حولها فلي
وحدي رأي فيهما أنفرد به ويخالفني فيه رفاقي . قال له الشيخ
فابسط لنا الحديث لنتعرف عليه وعلى وجهات النظر فيه .. قال
المريد : فإنني أرى أن في بعض المديح والهجاء في الشعر العربي
لوحات فنية رائعة لا ينبغي لنا أن نشيح عنها أو أن نحذفها من
كتب التراث لنفاستها ويخالفني بعض رفاقي في الرأي وللشيخ
فينا رأي لا يرد ومشيئة لا تنقض فهل نطمع في أن يعطينا

الشيخ رأيه الفصل في هذا الخلاف ؟ قال الشيخ : فإننا سنخرج اليوم بأحاديثنا العلمية والسياسية الجافة إلى روضة أنف تتخايل بها الأزهار والثمار وتطرب الجداول والغدران والطيور بخريرها وألحانها ، ويضوع الشذى فترتخي أعصابنا بعد توتر ـ لقد أدخلتنا اليوم ـ يا بني ـ في واحة ظليلة خضراء تقينا حر الهجير وتريح أبصارنا من القفار الجديبة .. وإذا كان لا بد لي من الكلام في هذا الموضوع الشائق فإني لأحاول أن أبسط لكم رأيًا لي قديمًا فيه .. سئلت عنه فأجبت وكان الجواب يومها مثار جدل شديد ..

إن الشعر في أدبنا العربي هو خلاصة الرحيق منه .. ولقد برز في التاريخ العربي قديمه وحديثه شعراء موهوبون متفوقون .. وكانت الدولتان الأموية والعباسية تشجعان الشعراء وتثيبهم وتكرمهم بحيث تتيح لهم مجال التنافس ، ثم جاءت بعض الدول الإسلامية في الأندلس وفي الشام والعراق ومصر وحذت حذو بني أمية والعباس في تكريم الشعراء وصلاتهم مما نجم عنه

ازدهار للشعر ونبوغ فيه إذا كان الشاعر موهوبًا بالفطرة . فليس الشعر علمًا يتلقن وإنما هو مواهب يكرم الله بها بعض عباده .. فأما في الجاهلية فلقد كان التنافس بين القبائل والتخاصم والغزوات الدائمة من كل قبيلة أو مجموعة متحالفة من القبائل ضد خصومها المتحالفين أيضًا هو السبب الأكبر في بروز عدد من الشعراء المتفوقين كانوا ينافحون عن قبائلهم ويفخرون بها ويقدمونها على من عداها من سائر القبائل .. وكان لبعض شعرائهم صوت مسموع يثلج قلوب عشيرته ويحز في قلوب خصومها ، وكان لكل قبيلة شاعر يرد عنها ويفاخر بها مما أعطانا صفحة شعرية مشرقة من الهجاء المتبادل يومذاك .. وكان للشعر سوق وحكام ومواسم .. ولقد بلغ من العرب في الجاهلية للشعر أن علقوا بعض روائعه داخل جدران الكعبة المشرفة فسميت تلك القصائد الغرر بالمعلقات تميزاً لها وتكريمًا .. والمتصفح لتاريخ الشعر العربي الجاهلي .. والدارس له سيجدان كنوزاً نستطيع أن نفاخر بها مثيلاتها في الآداب

العالمية الأخرى فما يخذلنا الفخر ولا الانتصار وكان الوقت قد قارب انتهاءه فأرجأ الشيخ تكملة حديثه إلى ليلة قابلة وفي نفوس مريديه لهفة على سماع بقية الحديث وتهيؤ عقلي ووجداني له .

وفي العصر الأموي اشتهرعدد كبير من الشعراء ، ومن أكثرهم شهرة وأبعدهم صيتًا الثالوث المعروف جرير .. الأخطل .. الفرزدق .. وكان هناك إلى جانبهم شعراء مبرزون كجميل بثينة وكثير عزة وعمر بن أبي ربيعة والأحوص وتعربة الحميري صاحب صاحب ليلى الأخيلية .. كما نبغ واشتهر في العصر العباسي كذلك شعراء كثيرون من أبرزهم الحسن بن هانيء .. أبو نواس .. وبشار بن برد ومروان بن أبي حفصة وأبو العتاهية .. وكثيرون هنا وهناك .. ولعل الثالوث الأموي الذي أشرنا إليه آنفًا .. أشهرهم في المدح وفي الهجاء .. فلقد تهاجى جرير والفرزدق هجاء مقذعًا .. وتهاجيا مع الأخطل .. ومدح كل منهم خلفاء بني أمية فتركوا لنا .. في كثير من ذلك على

أقذاعـه .. وفحشـه وبعده عن الآداب العامة وعدم تحرجه من الخوض في الأوحال من أجل النصر على خصمه بأية أساليب .. تركوا لنا أدبًا رائعًا ما ينبغي لنا بحال أن نهمله .. بل من الواجب دراسته فإنه بمثابة سجل أدبي قويم إلى جانب أنه يؤرخ لحقبة من ذلك العصر من الواجب أن نعرفها ونعرف حوافزها .. كما إن كثيراً من مدائحهم كان أدبًا مشرقًا ضليعًا في أفانين الشعر وفي قوة العارضة وفي متانة الأسلوب وفي حسن التصرف بالثروة اللغوية التي كان يمتلكها أولئك الشعراء الأفذاذ .. وما تزال مدائح ذلك الثالوث وأهاجيه حتى اليوم وعبر القرون الطويلة .. ما تزال تعد من الأدب الخالد الذي يصاول القرون .. أما الشعراء الغزليون في العهدين الأموي والعباسي فإن شعرهم من العذوبة والسلاسة والصدق بمكان رفيع وهو جدير بالخلود الذي ناله بالفعل . فلقد قرأنا أشعارهم وتأثرنا بها تأثيراً بالغًا وسيقرأها أولادنا وأحفادنا حتى يأذن الله بانتهاء الحياة على سطح هذا الكوكب .. ولقد كان أبا نواس ـ في العصر العباسي ـ

علمًا بارزاً من أعلام الشعر وإن غلب عليه المجون والاستهتار الخلقي . لكنه من الناحية الفنية شعر نابض بالحياة وبصدق الاحساس .. ومن الإنصاف لأولئك الشعراء العظام ، بل وللغتنا العربية الخالدة .. من الأنصاف لهما .. أن نفصل بين الفن والخلق وأن نعطي كل شاعر حقه وإن لمناه أشد اللوم حينما يخرج بشعره عن الأدب وعن قواعد السلوك والخلق القويم .. لقد تفتح الوعي في عصرنا الحاضر تفتحًا كبيراً وانتشرت المدارس والجامعات التي تضع القواعد والأسس السليمة فلا تخلط بين الفن وبين الخلق .. بل إنها تميز كلاً منها على حدة .. ليفطن الناشئون إلى مواطن الجمال الفني في ذلك الشعر .. وفي كل شعر .. وليعرفوا إلى جانب هذه الفطنة الجوانب التي جانب فيها أولئك الشعراء قواعد الأخلاق وتخطوها .. ليستمتعوا بالفن ويعزفوا عن الاستهتار .. بالتبذل الرخيص والملق الممقوت في المديح .. وبالولوغ في الأعراض ونهشها والانحطاط إلى أسفل دركات الشتيمة والخصام في الهجاء .. وكما إننا نعمد إلى

السمكة فنأهذ بتنظيفها واستبعاد أشواكها وأقذارها للتمتع بلحمها الشهي .. كذلك هو الشعر فإن فيه الكثير الطيب إلى جانب المستهجن المسترذل .. فمن التجني أن نضرب صفحًا عنه فيضيع علينا من الفوائد ما لا يقدر بثمن .. وما لا تعوضنا عنه كنوز الأرض وكل مادياتها .

***

المجلس السابع والعشرون :

اكتمل مجلس الشيخ ومريديه في ليلتهم التالية .. إلا أنهم افتقدوا أحد المريدين فإنه لم يحضر بعد مع إنه كان من أشد المريدين حرصًا على الحضور في الموعد المحدد للاجتماع الليلي .. وكانت الجماعة بمثابة أسرة شديدة الترابط يحس بعضها بإحساس بعض فرحًا وترحًا ولا يكتمل انسجامها إلا باكتمال أعضائها .. وكان الشيخ بمثابة الرأس المفكر والصدر الحنون لكافة الأسرة .. أما المريدون فهم أعضاء هذه الأسرة التي يشد بعضها بعضًا كالبنيان المرصوص .. إن مسرة فرد واحد منها هي مسرة الجماعة كلها تسري بينهم سريان النشوة في النفوس بفعل مؤثراتها الحتم .. كذلك هو الألم أو الحزن وما إليهما من أرزاء الحياة ومكارهها .. فإن الجماعة كلها تتكافل وتتأزر عليه وتشارك فيه حتى ينتهي ككل شيء في هذه الحياة .. قال الشيخ لمريديه : أين فلان ؟! لقد تأخر عن موعده وما كانت له عادة بهذا ، بل لعله كان أكثركم تبكيراً في الحضور حتى لقد قلت له

مرة مداعبًا : إنك ستأخذ النمرة الكاملة في المواظبة .. وكررت له كلمة المواظبة ممازحًا قائلاً .. المواظبة وحدها وإلا فقد يأخذ النمرة الكاملة فيما عداها سواك .. وبينما هم في حيرة وتساؤل إذا بأخيهم يهل عليهم وفي ملامح وجهه اهتمام سار .. أو مسرور مهتم .. وحيا شيخه ثم حيا زملاءه وأخذ مجلسه منهم . ثم تقدم إلى الشيخ باعتذاره عن التأخر قليلاً بسبب يراه جديراً بالوقوف عنده والتأمل فيه .. ولقد يراه جديراً بأن يكون حديث الليلة وحدثها .. وقبل أن يسأله أحد منهم عن سببه هذا الهام السار .. بادر هو بالقول فقال لشيخه : سيدي إنني كثيراً ما سمعتك تحدثنا بألم وحسرة عن الإسلام والمسلمين في ماضيهم الرفيع المتألق .. وحاضرهم المنخفض القاتم .. وتحدثنا عما أخذه الغرب من المآثر ومن الحضارة الإسلامية .. وتركناه نحن فنسب إليهم ونحن أحق به منهم لأننا نحن أصحابه وهم مقتبسون .. ولقد سمعتك تحدثنا ذات مرة عن العالم الجليل الشيخ محمد عبده الذي كان هو وشيخه جمال الدين الأفغاني .. وكثير من

أتباعهم البارزين .. من أعظم الدعاة إلى نهضة المسلمين من كبوتهم والعمل على أستعادة ماضيهم الوضيء .. ومن أعظم الساعين بهمة وإخلاص لتطهير الإسلام من الشبه والبدع التي ألصقها به كثير ممن ينتسبون إليه عن حسن نية .. أو عن سوء قصد .. مما أساء إلى سمعته . وهي السمعة المدوية الطاهرة من كل درن .. ومما جعل بعض المستشرقين المتعصبين يهاجمونه بضراوة وهم يعلمون أن الإسلام بريء مما يقولون .. وأن هذا الذي يهاجمون به الإسلام هو من عمل بعض المسلمين لا من جوهر الإسلام خير الأديان السماوية وخاتمتها .. سمعتك يا شيخي تقول إن الإمام محمد عبده حينما زار أوروبا وعاد إلى مصر سأله كثير من أتباعه عما رأى هناك .. وعن الفوارق ما بين هنا وهناك .. قال لهم الشيخ كلمته المأثورة .. لقد رأيت بأوروبا إسلامًا ولم أر مسلمين .. وأرى هنا مسلمين ولا أرى إسلامًا .. وكان الشيخ يقصد بقوله الأليم هذا إن الأوروبيين قد أخذوا كثيراً من التعاليم

والتقاليد الإسلامية وعملوا بها بالفعل .. أما نحن المسلمين فإننا مع بالغ الأسف قد تركنا هذه التعاليم والتقاليد وأخذنا بما يغاير روح الإسلام وجوهره .. وهذا صحيح كما قلت لنا يومها .. أما ما رأيته فأهمني وأسرني وأخرني عن موعدي الذي لم أتأخر عنه قط فسأعرضه على شيخي لأسمع ويسمع إخواني منه كلمة الفصل فيه كما تعودنا جميعنا منه فإنني لأراني قد استأثرت بمقدمتي هذه بالوقت كله فمعذرة .. قال الشيخ وهو يتهيأ للقيام فإننا لنرتقب منك هذا الشرح عما تقول فإلى اللقاء في ليلتنا القادمة إن شاء الله .

قال الشيخ لمريديه وقد اطمأن إلى انتظام عقد المريدين واكتماله .. قال له .. هات يابني ما شهدته بالأمس فأثار اهتمامك واغتباطك فإننا إليه لمشوقون .. وما أعرف أحداً من أبنائي يهتم ويسر إلا بما يدعو إليهما بحق فأنا شديد الاعتزاز بكم جميعًا شديد الحب . وأشعر أنني لو أنجبت من صلبي أبناء لما أحببتهم ولا اعتززت بهم

بأكثر من هذا القدر الذي أحسه لكم بين جنبي .. فسرت بين المريدين همهمة تنبىء بفرح غامر واعتداد بما قال الشيخ فما عهدوه يقول هزراً من القول .. ولا عرفوه بالذي يكذب على مشاعرها أو يزيفها فهو دائمًا صادق كل الصدق صريح كل الصراحة ..

واعتدل المريد في جلسته ثم قال للشيخ وعيون أترابه تحيط به كما يحيط النطاق بالخصر .. لقد رأيت يا شيخي وأنا قادم إليكم سربًا من الفتيات ذاهبات إلى مدرستهن .. وكن جميعهن يرتدين أزياء محتشمة تنطبق على تعاليم الإسلام الراشدة .. ما عدا واحدة منهن فإنها كانت ترتدي زيًا يخالف أزياءهن من حيث الحشمة والتوقر .. كان عدد الفتيات كبيراً . وسمعت واحدة منهن تقول لتلك المتبرجة .. ماذا نرى منك يا أختاه ؟! ما هذا المظهر الخليع الذي لا يليق بكرامتك .. ولابأنوثتك .. ولا بدينك .. لكأنك ذاهبة إلى عرس أنت فيه العروس أو

إحـدى وصـائفهـا .. وحتـى لـو كنت هذا فإن الشارع العـام ليس مـكانـه .. إنـي لأرى الأبصـار وهـي تتـناهبك فتبصر منـك مـا لا ينبـغي أن تبـصره فـيـزيـدون تجـاسراً عليـك وطمـعًا فـيك .. إنك بهـذا المظهـر تعطينهم السـلاح الـذي يصـوبـونه إليـك .. والأمل الـداعـر فـيـك وأنـت كـمـا نعـرف كلـنـا مـن الطهـر والعفـاف بمكان لا تـرقـى إليـه شـبهـة ولا تحـوم حـولـه ريـبـة . فـإذا قـامت فـإنمـا تبـوء بالفـشل وتـعـود بـالخـزي وقـد عـرفت أن ظنـونهـا لـم تـكـن بالصائبة .. فلماذا تفعلين هـذا يـاأختـاه فتناقضين بـه طبيـعتك النقيـة العيـوف التـي نعـرفهـا عنـك ؟! ألـم تسـتمعي إلـى التقاة مـن شيوخنا وشيخاتنا وهـم يتحدثون عـن الحجاب فـي الإسلام ويفصلونـه تفصيلا .. وهـو حجاب منصف معقول غيـر متعسف ولا ظـالـم كـمـا تـريــن فيـنا .. لماذا تطمعين فيـك أولـئك الـذيـن فـي قـلـوبـهـم مـرض وأنـت تـعـرفين كـمـا نـعـرف نـحن أنهم لـن ينالوا منك مـنالاً ؟!

قـال المـريـد لشيـخـه .. ونظرت إلـى تلك الفـتـاة التي

شذت بمظهرها عن لداتها فإذا هي على خجل كبير مما سمعته من إحدى زميلاتها وما ظاهرتها عليه بقية الزميلات .. وإذا بوجهها يرفض عرقًا .. وإذا بها تعتذر لأترابها عما بدا منها من طيش طفولي ما ينبغي له أن يكون لها وهي مراهقة .. قالت لهن .. سأعود إلى داري فأبدل من زيي وألحق بكن إلى المدرسة .. معذرة يا أخواتي وبارك الله فيكن .. فشكرن لها استجابتها السريعة ، وذهبن إلى المدرسة ، وعادت هي إلى البيت لتعود إلى مدرستها كأترابها في زي محتشم ..

لقد فرحت بما سمعت ورأيت فرحًا طاغيًا حملني على التأخر لأتابع هذه القصة التي تبشر بخير كبير بالنسبة لفتياننا وفتياتنا ثم آتيكم منها بنبأ ..

قال له الشيخ : فإننا جميعًا لنشاركك في فرحتك هذه ونعذرك على التأخير فلقد جنيت لنا به جنى حلواً نافعًا بارك الله فيك . وجعل هذه الظاهرة الإسلامية الكريمة تتفشى

بحيث تشمل كل ناشئتنا ذكرانًا وإناثًا .. فأمن المريدون على دعاء الشيخ ثم تأهبوا للقيام . وقد رأوه يتأهب له .. ليعودوا من ليلتهم التالية إلى مجلسهم الذي ينضح بالعلم والمعرفة والثقافة والخلق .

***

المجلس الثامن والعشرون :

في الليلة التالية وبعد أن اكتمل جمع المريدين وأخذوا في أحاديث شتى ريثما يحضر الشيخ أهلت عليهم طلعته البهية وعليها بشاشة واغتباط يكادان يخرجان الشيخ عن سمته المعتاد .. سمت الوقار المهيب المتحفظ .. فعجب لذلك المريدون وإن أدخل على نفسهم السرور .. قال قائل منهم لصحبه : والله لأتجاسرن على الشيخ فأسأله عن أسباب مانراه عليه وإن كنت لم أتعود مثل هذا الاقتحام على سريرته .. قالوا له فإنك لتعبر عما يخالج نفوسنا فتعجب له وتسر منه .. ولحظ الشيخ منهم ما يساورهم وما كان تهامسهم ينم عليه فابتدرهم قبل السؤال قال : لقد ملأ حديث الليلة البارحة نفسي فرحًا وبث فيها آمالاً عذابًا .. ذلك الحديث عن الظاهرة الإسلامية التي بدت بوضوح على ناشئتنا وهم عدة المستقبل وذخر العقيدة والوطن .. فالدعايات الهائلة المضللة .. والزحف العقائدي المنكر بكل الوسائل وبكل المغريات قد أثرت في الجيل الجديد تأثيراً سيئًا فشككته في

عقيدته التي لم يدرسها دراسة جيدة تقيه من المزالق . ولعل مرد هذا هو النقص الخطير في البرامج التعليمية التي كانت تفتقر افتقاراً شديداً إلى مادة الدين منذ نعومة أظفار أولادنا . والذي تخلصنا منه ـ ولله الحمد ـ اليوم فحفلت برامج التعليم في كل أدواره بالمادة الدينية التي توجه الناشئة توجيهًا دينيًا سليمًا وتعصمهم من فتنة أولئك المضللين الذين اندفعوا لكافة الأقطار الإسلامية تحت شتى المؤثرات بما فيها بذل ألوف الملايين في هذا السبيل من قبل أعداء الإسلام الذين يكيدون له خشية انتشاره .. لأن في هذا الانتشار القضاء على كثير من الزعامات الزائفة والمصالح الحرام .. ولهذا نرى اليوم أولادنا وقد أقبلوا على الدين يتفهمونه بعد الدراسة والتوجيه الرشيد ..

لقدجمعتني الظروف الطيبة يوم أمس برهط من رجال التعليم ومن رجال الدين الذين يقومون بالوعظ والإرشاد في الداخل .. وفي الدعاية للإسلام وتوضيح مناهجه وسبله وأهدافه وأغراضه في الخارج .. توعية وهداية وإرشاداً .. ومناهضة

للسيل العرم من المستشرقين والمبشرين الذين يتظاهرون بالعلمانية تارة .. وبالتقوى تارة أخرى .. وينتشرون في كافة البلدان الإسلامية انتشاراً مفزعًا فيدسون السم في العسل .. ويدعون باسم الله .. والله بريء مما يدعون إليه .. هؤلاء الذين يفدون إلى بلاد الإسلام ببواعث شتى .. من عقيدة منحرفة زائفة متعصبة يدعون إليها سراً وجهراً .. ومن اغراءات مالية تغريهم بها الجمعيات اليهودية والمسيحية والملحدة .. اجتمعوا كلهم على مناهضة الإسلام والكيد له كيداً يظنون أنهم يصرفون به الناس عن الإسلام .. يريدون أن يطفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كرهوا كما جاء في محكم التنزيل .. كل هذا والإسلام ثابت كالطود الراسخ ، والمسلمون ـ إلا أقل من القليل ـ ثابتون بقوة . وهم برغم ضعف الدعاية للإسلام والتبشير به في كافة أصقاع الأرض بالنسبة لدعاياتهم المنتشرة في كل مكان والمؤيدة مادة ومعنى من جمعيات عديدة عتيدة تمدهم بالمال وغير المال وتضاعف من عددهم بين آونة وأخرى .. برغم كل هذا فإن

الإسلام والمسلمين بخير والحمد لله . ذلك لأن عقيدتهم سمحة واضحة تجمع لهم بين خيري الدين والدنيا ، وليس معنى هذا أن نكتفي به فلا نعمل على انتشار الإسلام والدعاية له ومساعدة أهله في كل زمان ومكان .. كلا فإن هذا العمل هومن أوجب واجباتنا كمسلمين حريصين على أن تكون كلمة الله هي العليا .. ونظر الشيخ إلى ساعته فعرف أن الوقت قد انتهى به وبمريديه فانفض مجلسهم لينتظم من غده كعادته .

***

المجلس التاسع والعشرون :

وفي الغد والنسيم سجسج عليل .. والليل صاف مؤتلق تلتمع نجومه كما يلتمع العقد الوضيء في عنق الزنجية الحسناء .. تحلق المريدون حول شيخهم وكأنما عذوبة الليل ولطف الهواء قد مساهم بعصًا سحرية فملأتهم نشاطًا وحيوية وتوثبًا وارتقابًا للغذاء الروحي المعتاد .. كذلك هو الشيخ قد كان .. فإن الطبيعة حق مشاع لكافة الخلق .. ومتاع يعم فيه النصيب ويشمل ولا يقل ويختص . فلقد كان الشيخ طلقًا مرحًا تتألق عيناه بوميض العبقرية ممتزجًا بوميض الحبور ، وسبحان الله العظيم فإن الطبيعة برقتها وخشونتها .. بصفائها واعتكارها تنعكس على تصرفات الخلق أجمعين حتى الحيوان والجماد أو ما نظنه جماد وهو يشعر ويتحرك بإذن ربه من حيث لا نشعر نحن . وصدق الله العظيم « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » والعلم يثبت هذا بكل صدق وجلاء ، ولئن توصل ـ وأعني العلم ـ اليوم إلى الحياة التي تدب في النبات

بشتى ألوانه فإنه ولا ريب سيتوصل في غده القريب إلى اكتشاف ومعرفة كنه الحياة التي تدب في الجماد .. في الصخرة الصماء وفي القفر الجديب وما إليهما مما لا نحس بحياته ولا نعرف جوهرها ..

كان شيخنا ـ إذن ـ منسجمًا مع الطبيعة في تلك الليلة الحلوة من ليالي الربيع .. فداعب مريديه وتلقوا هم دعاباته بالبشر والابتهاج .. ثم قال الشيخ : أحسبني في ليلتنا البارحة قد اضطررت اضطراراً إلى اقتضاب الحديث وبتره .. فلقد انتهى وقتنا الذي نحدده لجلساتنا هذه .. وما أردت أن أشق عليكم بالاستمرار وطول المكوث فإنني لأعرف أن لبعضكم سعيًا في مجالي الحياة ومجالاتها .. يضطره إلى أن ينصرف إليه ، فما له من هذا محيص . لقد يكون هذا السعي البار لنفسه ، ولقد يكون لأهله ولمن يعول فمن الواجب الحتم أن لا نصده عنه وأن لا نشغله بما سواه .. وتعالت صيحات المريدين في أدب واحتشام وهم يؤكدون

لشيخهم أن مجلسهم هذا لا يعدله شيء في حياتهم .. وأن كل ما عداه مستدرك غير فائت ولئن فات فإن لهم أعظم العوض وأغلاه بهذه الجواهر النفيسة التي يلتقطونها التقاطًا من شيخهم فتكون لهم نعم الذخر في حياة ما أتفه جانبها المادي وما أحقره .. وهي إلى هذا حافز منشط لاستدراك الفائت أضعافًا مضاعفة فليمد الله في حياة الشيخ ، وليزده من نفحاته ورضوانه كفاء ما يزودهم به من زاد هو أكرم وأشهى زاد في الحياة .. وتبسم الشيخ وجمجم بكلمات شكر لمريديه وقال لهم وعيناه مغرورقتان بالدمع : يا أبنائي سأوجز لكم ما سمعته في ليلتي المنصرمة من بعض المربين والوعاظ المتنسكين الذين نذروا أعمارهم لله ولرسوله ولخير الإسلام ورفعته وانتشاره وتنقيته من الشوائب التي ألصقها به أعداؤه .. لقد قالوا لي أن طلبتهم من الشباب سواء منهم الجامعيون أو من هم في سبيلهم إلى ولوج الجامعة .. قالوا بأنهم لمسوا في هؤلاء الشباب روحًا إسلامية

خالصة ، واندفاعًا إلى الدراسات الإسلامية ، والتخلق بأخلاق الإسلام .. إن أكثرهم بدأوا يصلون ويصومون ويتأملون في خلق الله .. ويستكثرون من مطالعة الأسفار التي تترجم لكبار المسلمين وعظمائهم من السلف والخلف .. وبعضهم يتلهف شوقًا إلى الجهاد في سبيل الله وطرد اليهود المغتصبين من بيت المقدس ومن كافة الأراضي العربية الحبيبة العزيزة .. ليس بدافع قومي فحسب بل أيضًا بدافع ديني نقي خالص النقاء ، وهذا هو شأن الأكثرية منهم .. أما القلة الباقية فهي في طريقها إلى ورود هذا الحوض العذب السلسل .. حوض الدين .. حوض الإسلام لتنهل منه ما استطاعت ولتتضلع بعد ذلك جوانبها بالإيمان والرجوع إلى الله بعد إباق .. أليس هذا الحدث الذي شاء الله له أن يكون في عصرنا هذا .. عصر المادة والإلحاد والزندقة والتهرطق .. أليس هو من أعظم الأحداث التي نشهدها اليوم إن لم يكن أعظمها على الإطلاق .. قال المريدون له بصوت واحد

كأنما يصدر عن فم واحد : بلى .. بلى أيها الشيخ الجليل .. أعزك الله وأعز الإسلام وأعزنا به .. وقاموا بعد هذا إلى شيخهم يحيونه ويلثمونه بحب واحترام قبل أن ينصرفوا من مجلسهم هذا.

يعرف المريدون أحاسيس الشيخ كأنهم يقرأون في كتاب واضح السطور . فلقد كان وجه الشيخ كالمرآة الصقيلة تكشف عما وراءها ببيان .. فإذا كان متطلق الوجه مشرق المحيا بسام الثغر نم هذا عما يخالجه من اغتباط واطمئنان ، أما إذا كان مكروبًا ضيق الصدر فإن وجهه يدل دلالة منظورة على ما يكابد من شجون ومكارب .. والشيخ لا يغتبط إلا لخير ولا يكتئب إلا لشر .. ولما كان كل شيء في هذا الوجود نسبيًا فإن هذه النسبية تظهر على الشيخ بقوتها أو بضعفها .. أما في ذلك اليوم فلقد كان هم الشيخ بين بين فهو مبتسم مقطب .. منبسط منقبض .. وفي مثل هذه الحالة يصمت المريدون حتى يبدأ شيخهم بالحديث .. فهم لا يبدأونه بالقول إلا إذا آنسوا منه فرحًا غامرًا .. أو

هما مبرحًا ، فهي حالة تخيفهم خشية على صحة الشيخ الغالية من الارهاق . فبعض الفرح له نفس تأثير بعض الغم إذا استثار الأعصاب وهيج المشاعر ، لهذا صمت المريدون كعادتهم حتى يتكلم الشيخ . ولقد تكلم بعد صمت قصير .. قال :

من عادتي ـ يا بني ـ أن أصلي الجمعة كل مرة في مسجد غير الأول .. إلا إذا كنت بأحد المسجدين الأعظمين ـ الحرام والنبوي ـ فهما مما لا يقارب بهما مسجد في الدنيا كلها .. فلقد سمعت أنه قد ورد في الأثر أن الأماكن تشهد لأصحابها بالعبادة يوم القيامة .. وخير الأماكن ـ ولا ريب ـ بيوت الله .. فأنا أتوق إلى أن تشهد لي مساجد كثيرة وأماكن شتى بغشيانها للعبادة .. هذا إذا تفضل ربي فقبل مني عبادتي له . فإن رضاه ـ سبحانه ـ ليتأتى بما قد لا نعلمه .. أو إننا نعلمه فنحسبه هينًا وهو عند الله عظيم .. وجوهر العبادة هو الإخلاص والخضوع الكامل له سبحانه ، ولجلاله بعدئذ أن يتقبل أو أن يرفض فهو العليم بذات الصدور .. وإن كنت على وثوق يشبه اليقين ، أن

ربي سيستقبل مني ومن كل عباده المخلصين قبولاً حسنًا وهو ما نبغيه جميعًا وما نسعى إليه مفوضين الأمر بعد ذلك له وهو الأعز الأكرم ..

ولقد صادفت في أدائي لهذه الجمع بشتى المساجد ما يسر وما يسيء إلى النفوس المؤمنة بربها .. فأما ما يسر وهو الأكثر ولله الحمد والمنة ، فهو الكثير من خطب الجمعة التي أخذت تركز على المشاكل والأحداث المحيطة بالمجتمع المسلم ، تركيزها على الأمور الدينية والوعظ الحسن .. فأخذ الناس يسمعون من بعض الخطباء استعراضًا للمشاكل الدينية والدنيوية .. وحلولاً لها بحسب المستطاع الذي يتوصل إليه الخطيب باجتهاده ولا سيما أولئك المثقفين منهم بعلوم الدنيا والدين .. ولقد سمعت أنا ما أثلج صدري وأعطاني البشرى بأننا معشر المسلمين إلى خير .. وإن الوعي قد تفتح أوكاد فتفتحت به البصائر واستنارت الأفكار وأخذ الجمهور العربي والجمهور المسلم يحاور ويناقش أحداث الساعة بفهم وبإلمام جيد ، وهذا لعمري مما تقر به العين

ويسعد الفكر والضمير والوجدان . على أن الجانب الذي استرعى نظري هو ما سأحدثكم به في الغد إن شاء الله فإنني لا أشعر أن وقتنا المحدد لجلساتنا المعتاد قد انتهى .. فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته في انتظار الغد القريب .

***

المجلس الثلاثون :

وأهل الشيخ بطلعته على مريديه في الليلة التالية وهم آخذون فيما يأخذ به الناس فيه من حديث عن الحياة والأحياء ، فلما رأوا شيخهم هبوا وقوفًا احترامًا له وتقديراً لمنزلته منهم . ولما اطمأن بالشيخ مجلسه قال : فإنني بحول الله سأتم حديثي بالأمس عن خطب الجمعة وخطبائها ، ولقد ختمت حديثي بقولي إنني لاحظت في كثير من هذه الخطب على جلالها ومعالجتها لشؤون الدنيا والدين .. أن الخطباء لا يلحنون في هذه الخطب بل يؤدونها أداء عربيًا فصيحًا وسليمًا .. إن اللحن ـ يا بني ـ ولا سيما من العلماء وممن يتصدون للوعظ والإرشاد هو خطيئة كبرى لا يرضاه الدين ولا ترضاه اللغة العربية لغة القرآن .. ولقد كان العرب في صدر الإسلام يتحرجون أشد تحرج من اللحن ويرونه شيئًا معيبًا ما ينبغي أن يقع من أحد وإلا عدوه من الدهماء والجهلة ، وكان شاعرهم يقول :

ينادي ربه باللحن ليث فذاك إذا دعاء لا يجاب !

أرأيتم أنهم كانوا يرون اللحن منقصة قد تؤدي إلى أن لا يقبل الله دعاء صاحبها .. وفي حديث أبي الأسود الدؤلي مع ابنته حينما قالت مرة وهو يسمع ما تقول : ما أحسن السماء .. فقال لها: نجومها . قالت له : يا أبت ما إلى هذا قصدت .. إنما قصدت التعجب .. قال لها : إذن افتحي فاك .. أي قولي .. ما أحسن السماء .

هكذا كان أسلافنا يحرصون على عدم اللحن صيانة لهذه اللغة المجيدة المعطاء .. فما أوسعها وأعمقها واستجابتها لكل مطالب الحياة لو إنا أحسنا دراستها والتضلع بها . وتسامحنا في اللحن عقوق للغتنا ولديننا الحنيف الذي جاء بها مشرقًا ناصعًا معصومًا من اللحن والخطأ .. ولهذا فإنني ـ يا بني ـ حينما خدش أذني لحن بعض خطباء الجمعة وهم يقومون على المنابر في بيوت الله .. شعرت بضيق شديد وبألم بالغ .. وحينما سمعت اللحن في بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية الشريفة اقشعر بدني وضاقت بي الأرض وكدت أغادر المسجد

قبيل الصلاة إلى مسجد آخر لا يجرح سمعي فيه لحن مقيت كهذا .. إلا أنني اصطبرت وقلت لنفسي .. لعل هذا اللحن كان خطأ من الخطيب لم يشعر به فإذا هو شعر بادر بإصلاحه وعدم الوقوع فيه كرة أخرى .. وأسررت في نفسي أن أقوم إلى الخطيب الإمام عقب الصلاة فأهمس إليه وأنا مستفرد به بما كان من لحن قبيح فيما لا يجوز اللحن فيه بحال من الأحوال .. في القراءة والحديث ، وأقول له بلطف بالغ أن خطبته كانت قيمة ونافعة لولا هذا اللحن الطارىء . وحينما انتهت الصلاة وأقفر المسجد من رواده إلا القليل .. وكاد الشيخ الإمام الخطيب أن يغادر المسجد بدوره .. جئت إليه واستوقفته وتحدثت إليه برقة بعد أن أطريت خطبته .. قلت أيها الشيخ الجليل لقد بدر منك عن غير قصد ولا شك بعض اللحن فيما ينبغي لنا أن نتحرج فيه كل التحرج ، وأن ندقق فيه كل الدقة ، ولقد أمرنا من الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بالنصح ومحاولة

إصلاح الأخطاء ما استطعنا السبيل إلى الإصلاح وقال : الساكت عن الحق شيطان أخرس .. أو كما قال عليه الصلاة والسلام .. ثم أنبأته بما سمعت .. أتدرون يا بني ما حدث ؟! أي وربي لقد رأيت الخطيب الإمام وقد تغير وجهه غضبًا ثم قال لي بصوت جاف خشن .. ياأخي أنا أستاذ اللغة العربية بمدرسة .. وأنت غلطان فأنا لا ألحن ولا يقال لمثلي هذا الكلام الذي لا أقبله .. ثم أدار إلي ظهره وانصرف محنقًا مزدريًا .. فتركته بدوري وانصرفت وأنا أحوقل وأضرع إلى الله أن يوفق ولاة الأمور إلى تقويم هذا الإعوجاج الخطير بحيث لا يؤم الناس ولا يخطب فيهم إلا مثقف متنور ذو خلق قويم لا يضيق بالنصح ولا يجرح المسامع باللحن القبيح ..

كان رمضان المبارك في أيامه الأخيرة .. وكان الشيخ يؤثر في عشره الأواخر الانصراف إلى العزلة والعبادة والتأمل .. فاستأذن مريديه في ذلك فأذنوا له وهم كارهون فقدم لهم في دروسه من المنافع والمتع ما لا يعدله شيء في الحياة .. فإلى

اللقاء في عام جديد ورمضان جديد إذا أذن الله أن نكون على قيد الحياة .. والآن اللهم اجعلنا ممن كتبت لهم سابقة الحسنى .. وختمت لهم بخاتمة السعادة .. إنك أنت السميع المجيب .

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة